رئيف خوري

الحب أقوى

رواية تاريخية من العصر الأموي

الطبعة الاولى ، بيروت — لبنان ، كانون الثاني ١٩٥٠

جميع الحقوق محفوظة لدار المكشوف

مقدمة

ماذا تراني استطيع ، ايها القارىء العزيز ، ان اقول لك في مقدمتي سوى ان هذه القصة تاريخية تدور في فلك مـــن العصر الاموي على عهد الخليفة معاوية بن ابي سفيان . لكنني ربما قصدت فيها الى اكثر من محض تصوير تاريخي قديم ، والى ابعد من مجرد وصف لحوادث جلها اختراع .

يبقى عليك ، ايها القارىء العزيز ، بعد ان تطالع هذه القصة ، ان تقول لي انت شيئاً فيها ، او تقوله لنفسك .

أما هذا الشخص الثالث — بيني وبينك — اعني الشيخ الفاضل داود الانطاكي صاحب كتاب « تزيين الاسواق بتفصيل اشواق العشاق » — وهو الذي بنيت هذه القصة على اساس من صنعه — فأدَنْ لي ان اسوق اليه بمفردي كلمة شكر . ثم تستطيع انت ان تشاركني ، او لا تشاركني ، في هذا الشكر بعد ان تفرغ من قراءة هذه القصة التي الهمنيها في ساعة تحمدها او تذمها .

رئيف خوري

الفصل الاول

منذ ان تجاوزت سعاد طور الحداثة فأصبحت صبيّة في الثاني عشر ربيعاً ، تسحب جلبابها الخشن الطويل بين خيام بني عذرة في هذا الحي الهادىء المنزوي الذي تمضي فيه الحياة على وتيرة واحدة كطنين الذباب المدوّم فوق الماء الراكد ، لم ير طلعتها بشر إلا بوغت بظهور هذا اللون المشرق في هذه اللوحة المكمدّة ، فوقف ، ولو هنيهة ، يعطي العين حقها مما رأت من سحر جمال أفرغ في هذا القالب البديع من لحم فتيّ ودم حار ... قوام ممتلىء ، به قصر يحبيه الى النفس كالدمية الصغيرة ، جلس فيه على الصدر كوزان متكبران ، وعينان نجلاوان لامعتان ذكيتان ، كحلتا في الجفنين والاهداب ، بقلم دقيق غمس في ذوب ليل البادية ، ووجه رقيق وثم تحت لمى الشفتين بنقاط زمردية كرؤوس الاعشاب النابتة خضراء ، وأشرب ما شاء من سمرة الشمس الصحراوية لم يستره عنها لثام ولا هودج ... زهرة رخصة ناضرة غريبة في هذا القفر الذي قلّ أن انبت الزهور . فلا بد من يوم قريب يحوم فيه عليها فتيان الحي من بني عذرة يتسابقون الى رضاها ، كل يطمع في استهوائها ولو بذل نور العين او حبة القلب . وما اعظم ما يتولّه العذريون بالجمال ، وما اشد ما يقيمون على العاطفة ، وما أحرّ ما يقولون الشعر بليلًا بالدمع . قنعت بذلك هذه القبيلة

في فقرها ومجاهل باديتها ، فكان هو عنوان ذكرها على التاريخ ، لا عنوان لها سواه . اذا قيل بنو عذرة قيل الحب النقي الوفي الخالد والشعر الهيمان الرقيق الواجد ، وإلا لما قيل بنو عذرة .

ولم يكن احد اعرف من ام سعاد بهذا الجمال الذي اسبغه على ابنتها خالق مبدع . عطيّة الله حقاً هذا الجمال ! وإلا فمن اين ؟ وام سعاد قطعت شوطاً من العمر تستطيع ان تعترف معه — لنفسها طبعاً ! — بانها لم تجاور الحسن والصباحة في يوم . وابو سعاد ، حتى في شبابه ، قبل ان تعمش عيناه ، كان ضاوياً قميئاً ، بينه وبين الوسامة مسافة اعوام .

وكانت ام سعاد ، على انها عذرية ، ابعد شيء عن تلك الطبيعة العاطفية ، الشعرية ، السخية في التضحية . كانت لا تنقطع ساعة عن التفكير في اي الازواج ترضى لفتاتها . تريده غنياً سرّياً فتياً ناضر الطلعة ، وتقدّر المهر بمئات الابل السمان النجيبة . ثم لا تفتأ تذكّر الاب بهذا الكنز الذي يملكه في فتاته ، وتوصيه ان يحسن الانتفاع به على حرمان الدهر ، كأنها تخشى ان يفرّط به في غفلة من غفلاته .

اما الاب — وليس هو اقرب من امرأته الى النفس العذرية ، وإن يكن اقل منها تحجّر قلب — فكان يقول لها : اطمئني ، لا عليك ... فهو الآخر يدرك جمال ابنته حق ادراك ، ويحرص على اختيار صهر عظيم الجاه ، فارع الشباب .

ولكن سعاد في غفلة عن ذلك كله .

اذا اخذت الآفاق تعكس بهاء الفجر المشارف ، وبدأت النجوم تشحب وتنحلّ ، وسرت نسمات السحر ، ودبّ دبيب اليقظة في

نواحي الحيّ ، نهضت فخرجت من مضرب الشعر تعين امها واباها على احتلاب الشياه القليلات . ثم تزوّدت زاد النهـــار وخرجت بالقطيع الصغير الهزيل الى مرعى قريب ، فلم تعد الا قبيل هبوط الليل لتعين امها واباها شأنها في مطلع الصباح . ثم تتناول العشاء خفيفاً من تمر ولبن . فاذا انعقدت حلقة سمر في اخبار الحب او الفروسية او الكرم او احداث الدولة ، واذا نُقرت اوتار رباب او ارتفع صوت منشد يواجـه وحشة الليل بانشـــاده الكئيب الرتيب ، سهرت تستمع حتى يرنّق النعـاس في جفنيها ، فتسكن عندئذ الى رقاد عميق لا أرق فيه ولا احلام — أهنـأ ما يكون الرقاد .

تلك حياتها : انسجام رتيب من يوم الى يوم . كل ما يكدرها كلمة جافة تقولها لها امها اذا كبّت وعاء الحليب او تقـاعست ان تخف الى البئر فتملأ القربة ماء . اما عيون الفتيـــان التي تترصدهـا فتختلس اليهـــا النظر اختلاساً ، او تحدّق فيها تحديقاً يلتمع بوميض ، فما كانت سعاد لتفهم عنها او تضطرب لها .

غير انها حال تغيّرت ذات مساء ...

عادت سعاد بقطيعها الصغير الهزيل الى الحي ومعها ابن عمهـا نصر وغنيمات له ليس يصحّ في اقصى درجات التساهل ان تسمى قطيعاً . وسعاد تكاد كل صباح تخرج من الحي مع ابن عمها او تلقاه في رابعة النهار وهو يرعى غنيماته او يرعى بأجرٍ مـاشية سريّ من سراة الحي . وكان خروجها معه او لقاؤهـا اياه امراً معتاداً كالدرب التي ألفت ان تسير عليها كل يوم ، ذهاب إياب . ولم تكن امها لتنكر عليها من الامر شيئاً .

لكن الأم انفجرت عليها بغتة هذا المساء وصاحت بها :

ـ لئن رأيتك بعد اليوم تخرجين او تعودين مع هذا الصعلوك المنتوف فلاعاقبنك أقسى عقـــاب ... وهزت في وجهها سبابة معقدة عوجاء يبس جلدها عليها وتشقق .

بهتت سعاد . لم تستطع ان تفهم لما بدرتها به امها سبباً . فنصرٌ هو ابن عمهـا . وهو الى ذلك موضع اخيها حين عدمت الاخ ، ورفيق طفولتها ، درجاً معاً في الحي حتى بلغا هذا المبلغ من الصبى . ونصر كثير المعونة لها في لمّ شتات القطيع اذا تفرق ، وفي سوقه الى الماء اذا عطش ، وفي توجيهه الى انضر بقاع المرعى عشباً . ونصر يمنحها شعور الامان بهذه القوس المعلقة الى كتفه والنشابات في جعبته . ويسليها بحكاياته العذبة وبما يوقع على ربابه من انغام حلوة ترسب في اذنيها ولا تنفك مترنمة في ضميرها . ثم هي تحزن لنصر حزناً قلبياً عميقاً . فابوه ، عمها ، قد مات وخلفه لام عقت امومتها ، فما لبثت ان تزوجت وتركته يرعى هـــذه الغنيمات ويُستأجر لاغنيـاء الحي ، ويأوي وحيداً الى خيمـة شعر موحشة بائخة مهلهلة .

بهتت سعاد ساعة سمعت هـذا التهديد من أمها ... اندفعت بخطى مرتبكة ورأس اسرع اليه الدم ، فانحازت الى مكان منحذف قبعت فيه . والليل يلتف حولها ويتكاثف سواده .

كانت من قبل تفكر احياناً في هذا الاهمـال الذي يتعرض له نصر بعد موت والده : اهمال من جانب امه التي تزوجت في قبيلة اخرى ، واهمال من جانب عمه وامرأة عمه ، ابيها وامها . لكن تفكيرها في هذا الامر كان طارئاً عابراً . اما الساعة فخيل

لها انه تفكير جدي ، قوي الالحاح عليها ، شديد التشبث بنفسها .

وفي هذه اللحظة اقبل ابوها شبحاً محدب الظهر انشقت عنه العتمة . وكانت قد انصرفت امها الى ما تجب العنـــاية به من شؤون . فقال لها ابوها :

ـ تقعدين ، يا سعاد ، وامك تعمل العمل كله ، أما تخجلين ؟

فنادته الام : دعها ، لا تأبه لها . لقد وجدت ضرورياً ان اغلظ لها اليوم في الكلام . لئن تكن بنيّة فهي بعد حين فتاة اكتمل نضجها . ومع ذلك ، فما زالت تخرج وتعود صباح مساء ، مع هذا الصعلوك المنتوف ، ابن اخيك نصر . وليس نصر بالطفل الذي لا يزال اثر حليب امه على شفتيه . وفي تصاحبهما واجتماعهما عواقب لا تحمد . فوالله لا لمحتها بعـد اليوم تكلمه إلا اذقت العصا طعم لحمهـــا .

فنظر الاب الى ابنته خلال الظلمة بعينين قطّب ما بينهما وقال لها : قومي ، قومي ، اسعفي امك ، وإياك ان تخالفي لهـا وصية . فنهضت سعاد بحركة طواعية عفوية ، تحس دمهـــا كله احتقن في رأسها . ومشت الى امها مطرقة ، تسعفها في صمت ووجوم .

بعد وقت ، وضع العشاء . فقعدت اليه سعاد مع امها وابيها ، لكن لم يخفَ أنها كانت تصطنع الرغبة في الاكل اصطناعاً وتقسر عليه نفسها قسراً . ثم انسلت الى الخيمة ، لم تنتظر ان تنعقد في الحي حلقة السّمر . واضطجعت مغلقـة الاجفان تتملق النوم الذي يغمر بالنسيان كل شيء .

لكنها عبثاً حاولت ان تنام ... لِمَ يُعامل نصر هذه المعاملة ؟ لِمَ يُنبذ نصر هذا النبذ ؟

ومن خارج الخيمة ، خلال ذريرات العتمة ، تسرب الى سمعها صوت امها الاجش يقول لابيها :

ـ كأني بهذه الصبية غداً تعلقت بهذا الصعلوك ابن اخيك على طول المعاشرة . أفتقبله صهراً وهو يتيم فقير اجير ، لا يستطيع دفع المهر ، بل لا يكاد يقوى على اشباعها ، او إشباع بطنه اللقمة ؟ واين هو من الشباب الجميل الذي يليق بسعاد وتليق به سعاد ؟ أما تراه كأنه قفص من عظام في كيس من جلد شد عليه شداً ؟ لا ، والله ! لن اقبل بعد اليوم ان تقع عليها عينه او تقع عليه عينها . لا ، والله ! ونحن لا شك موفقون الى صهر موفور المال ، عالي النسب ، مرموق الشباب .

فاتاها صوت ابيها مخافتاً في الجواب :

ـ انك تتكلمين ، يا امرأة ، كأن احداً فاتحك في الامر .

ـ ولمَ لا ؟ لمَ لا يتقدم في طلب سعاد رجل من الحي كأبي فاتك ، يطلبها لابنه فاتك ، بعد ان طلق زوجته الاولى ، ويؤدي انا المهر سرباً من نياقه العظيمة ، فنقبر الفقر ؟ ام انك تخال سعاداً غير لائقة ؟

ـ كلا . ولكني لا اعتقد ان هذا يكون .

ـ غبي ! ثق ان ليس في شباب الحي جميعهم من لا يتطلع الى سعاد . وفاتك من اشدهم تطلعاً اليها . غير انها ، البلهاء ! لا تتريث عند واحد منهم . كفاها ان تغدو وتؤوب بقطيعها مع هذا الصعلوك نصر ، ذاهلة غافلة ، الا عنه وعن ربابته وما قد يلفق لها من اشعار . لا تعي ما اوتيت من جمال وقدرة على الاغواء ، ولا تفكر في مستقبل ينفعنا وينفعها فيه هذا الجمال .

ترتدي الجلباب الخشن وتأكل التمر واللبن . ويلي عليها ، بلهاء ! لكن رويدك حتى اعلمها ...

تلقت سعاد ، في جلاء ووضوح ، هذه الكلمات المنبهة المثيرة الجارحة التي بثتها امها في سمع ابيها وكأنها حية تفح فحيحاً خافتاً في صمت هذا الليل وصفائه .

سمعت سعاد وفهمت كل شيء . وكأن ضباباً كثيفاً كان منتشراً على بصيرتها ، فانقشع وتمزق .

ولو ان سائلاً سألها قبل اليوم : هل تحبين ابن عمك نصراً ، لترددت في الجواب وحارت . فاي شيء هو الحب ؟ كل ما تعلمه من نفسها انها تحس باندفاع نحو نصر . الا انها تعهد اندفاعها من شفقة ورأفة عليه . لكن بعد اليوم ، بل الساعة ، ينبغي لها ان تنظر مجدداً في زوايا سريرتها . ترى ، أليست تحب ابن عمها نصراً ؟ وقرعت ابواب نفسها احاسيس ذكرت انها لامست وعيها ، حيناً بعد حين ، منذ اسابيع وشهور ، بل منذ اعوام . تلك الطمأنينة العذبة التي تستشعرها اذا دنا نصر ، وتلك الوحشة اذا غاب ، وتلك المبالاة بأمره حين تجده مهملاً منبوذاً ، وان كان هو لا يعبأ ولا يكترث ... يقيناً انها تحبه ، والا فماذا ؟ تحبه ذلك الحب العميق القوي الذي ينسج خفية ، في صمت واناة ، خيوط شبكته الناعمة الدقيقة ، حول القلب ، حتى اذا استيقظ القلب خافقاً مرفرفاً وجد نفسه في الشبكة .

هو ذاك — لا شك في انها تحبه . ويزيد في حملها على التعلق به اليوم هذا الازدراء الذي تصوبه اليه امها ويساير فيه ابوها . ومن طبع الحب ان يتحدى الازدراء . ثم ان سعاداً لتمتعض

اشد امتعاضاً مما تنويه لها العجوز . تريد لها زوجاً فارع الشباب وفيع النسب مثرياً . ولا يعني العجوز أهي تحب هذا الزوج ام لا تحبه . جل ما تنشده العجوز ان تقبر الفقر ، ولو قبرت معه ابنتها ! من قال ان الوأد انتهى فقـد اخطـأ . كان شكلاً وصار الى شكل . جل ما تدبر العجوز من امر ان تعقد صفقة كاسبة مع صهر تنتفع به وتباهي الناس – صهر على غرار فاتك مثلاً ، يطلق ويتزوج ، او يجمع عنده بين الزوجات . وماذا الذي يمنعه في زعمه وهو صاحب شباب ومال ، والبنات بضاعة بيع وشراء ؟

وتقلب ذلك الليل بطيئاً جداً ، ثقيلاً جداً ، على سعاد . فلما حان وقت نهوضها خرجت من الخيمة وئيدة الخطو ، يتشح وجهها الاسمر بالشحوب . ولم تنطق بكلمة ، بل سافت قطيعها الى المرعى كعادتها . فسمعت أمها تصيح بها في اثرها :

– اياك ان تنسي وصيتي لك بالامس . ولقد بكرت مع ابيك الى ابن عمك فأوصيناه ان يتركك وشأنك .

فلم تجب سعاد . ظلت تبتعد عن الحي مصرة على صمتها المغيظ . الا انها جعلت ، بين حين وحين ، تسرق اللفتات لترى هل يقبل نصر بقطيعه خلفها . فلم تشهد وراءها سوى وحشة الطريق .

وجدّت فبلغت المرعى الذي اعتادت ان تسرّح فيه قطيعها وهي تأمل ان يكون نصر سبقها اليه . لكنها لم تجد في المكان الا فراغاً ثقل على قلبها . ووقفت ترسل نظرها في الجهات على غير طائل . وكانت الشمس قـد بزغت وجعلت ترشف بأشعتها قطرات الطل عن الاعشاب . فأحست كأن صدرها يجف ويظمأ

كما تظمأ هذه الاعاشيب لوقع الحرارة . وخيل اليها ان شياهها تعبة لا تنطلق ولا يطيب لها المرعى اليوم كطيبه بالامس .

وفجأة بدا لها في البعيد شبح يسعى نحوها عدواً وتطير شملته وعباءته على الريح . فخفق قلبها لا تدري اغبطة ام ارتياعاً . فقد أملت ان يكون الشبح ابن عمها . لكنها في الآن نفسه خشيت ان يكون سواه . ولم تدرِ لمَ تمثلت لها صورة ذلك الجلف البطر فاتك . فانقبضت نفسها انقباضة اشمئزاز . وتهيأت لتحطيم جلافته وبطره على صخرة الاحتقار له ولغناه .

غير ان الشبح ما لبث ان انجلى عن نصر بقامته النحيفة ، يلوح لها بيده ، ويبتسم عن نسق اسنانه البيضاء تحت وبر شاربين اسودّا ولم يكادا . ولاول مرة رأته بعين الانثى ، فاستغربت ان تجد في سيمائه كل هذه العذوبة والوسامة .

قال لها وانفاسه مزدحمة ومراق انفه الافنى تختلج : تركت قطيعي وجئت لالقاك هنيهة في هذا المكان . ولعل اللقاء لن يتاح لنا بعد اليوم ، يا ابنة العم .

كلمات كانت تتوقعها فلم تعرها كثير اهتمام ، لكنها جعلت تتفرس في عينيه العميقتي السواد ، بينما هو يتكلم ، فتستشف اطيافاً من الألم والحنين والاسترحام تصارع كبرياء خرساء مصدومة ... قالت له :

ـ لقد علمت كل شيء، يا نصر . ابي وامي لا يرضيان ان نتلاقى بعد اليوم . وقد انذراني بالامر ليلة امس كما انذراك هذا الصباح .

وامسكت محدقة في محياه المظلل بالكآبة العميقة . وكأنما افاق فيها طرف من ذلك الحبث الغريزي البريء الذي لا تخلو

منه امرأة ولو تلقاء من تحب ، فقالت له مستلذة تعذيبه :

ـ وأي بأس اذا لم نجتمع ؟ وعلامَ يجب ان نجتمع ؟

فرأت محياه يتقع وعضلات وجهه تختلج كمن يهم بأن ينفجر باكياً . ورأته يخفض عينين جازعتين الى موطيء نعليها كمن يهم بان ينهار جاثياً عند قدميها .

فارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة راضيـة محبورة ... انه يحبها ، يحبها ، برغم انه قال لها بعد هنيهة من صمت صاخب عنيف:

ـ كما تشائين !

اوشكت ان تنفجر في وجهه بقهقهة لهذا الجواب . على انها ـ وعيناها النجلاوان تبرقان ـ فاجأته بصوت طفولي فيه نبرة غريبة من الجرأة والجد الرجولي :

ـ أتريدني يا نصر ؟ قل !

فاضطرب حاجباه . واتسعت عيناه دهشة لهذه المباغتة . وخشي ان تضيع الفرصة وهو لا يزال يغص بريقـه . فاسرع الى انتزاع هذا الجواب الذي لاصق حلقه :

ـ وهل تشكين ؟

ـ وهل تكون لي وحدي فلا تتزوج عـــلي اخرى ، ولو امكنتك الايام ؟

ـ اكون لك وحدك ، وما كنت في حاجة الى السؤال .

ـ اذن ، فانت لي وانا لك ! عهد من الله لا ينقضه بشر .

ونفذ من عينيها الى عينيه ضوء متقد نقي .

ـ وابوك وامك ؟

ـ لن يرياني الا زوجة لك او جثة هامدة .

فتفجرت الغبطة في هذا الرمل المحرق الذي اشتمل عليه صدر نصر . واعجبته لهجة الصدق والعزم في هـــذا العهد العظيم الذي قطعته الفتاة الصغيرة على نفسها ، فسري عنه بعض الجهد وانبسطت اساريره شيئاً ، وهم بالكلام . غير انها عارضته كمن يستثيره :

— لا عليك من ابي وامي . ولكني سمعت ان هـــذا الجلف الصلف فاتكاً ربما ارادني .

— فليتجرأ ... وارتسم على محياه ظل سحابة عابرة .

— وما تصنع ؟

— لو كان لنشابتي هذه لسان لاجابتك كيف ... تفلق قلبه . سعاد ، كنت استطيع الساعة ان اختطفك فأطير بك بين الارض والسماء . على ان ما يقوله الناس عنك ويعيرون به عمي يعنيني جداً . لذلك انتظر . وانا اعلم ان اكره ما يكره مني ابواك فقري . فلأسعين اذن ، ولابذلن لهما المهر الذي يرضيهما .

ومازجت صوت نصر رقة بعد جفاء ، واستأنف يقول : ولعل هـذا الحظ الذي يعبس لي تشرق اساريره وينطلق بابتسام . ولعّل هذه الطبيعة التي لا تكتسي الا لباساً رقيقاً من الخضرة تنسج لنفسها هذا العام كساء ضافياً من الاعشاب على نول الربيع . ولعل هذه السماء فوقنا تنهمر سخية فتدر ثدي الارض ، فتروى غناتي وتشبع وتتكاثر .

ثم صمت نصر كأنه استغرق في تأمل هذا الموسم الخصب الذي لونته كلماته بابهج الالوان وازهاها . وكأنه حقاً شهد هذا الموسم مقبلاً من بعيد ، لا شك فيه ، فراح يستدعيه ويستحثه على الدنو بكل ما أوتي من قوة وشعور ، مبتهلاً الى الارض والسماء والله .

ثم أفاق من استغراقه فلم يجد ما يقوله للفتاة الصغيرة القصيرة الشاخصة اليه في حب واعجاب ، سوى هذه الكلمات : والآن يجب ان انصرف مسرعاً . ويجب ان نصبر فلا نتلاقى إلا يوم نستطيع ان نكون زوجين برغم الكارهين .

وأدار ظهره يهم بانطلاق . لكن بدا كأنه يقتلع نفسه من موضعه وقد سُمّر فيه ... قالت له سعاد بصوت أغنّ دغدغ اذنيه دغدغة عذبة مطربة :

ــ ألا تتمهل لتوردَ غنماتي الماء ؟

فصفق فوراً بكفيه ونادى القطيع نداءه المألوف . فتلفتت الشياه من كل صوب بعيونها المستديرة المتألقة صفاءً لانها كانت تعرف صوته . وهرعت اليه تتراقص آذانها وتتواثب الياتها في الهواء وراءها ، فساقها الى المورد تتبعه سعاد وخطواتها على الرمل الطريء موسيقى صامتة ناعمة . وكان المورد غديراً تبقى من مطر الشتاء في قرارة رملية ، وقد رسبت اكداره فصفا ماؤه ولا صفاء مرآة من بلور .

شرب القطيع ، ونصر وسعاد ماثلان على حافة الغدير ينظران الى ما ارتسم فيه من عيون الغنمات كأنها خرز كبير من اللؤلؤ . وجالَ نظره في الماء فشفّ له عن عينيها ووجهها الحبيب . وجالَ نظرها فلاقى وجهه وعينيه . ونفخت ريح خفيفة في صفحة الغدير فماج الماء وارتعش فيه ظلا الحبيبين وتمايلا متدانيين . وكأن الرعشة سرت الى نصر وسعاد فارتبكا لهذا الاضطراب الذي مسّ كيانهما ، وحارا فيما يفعلان ، فانفجرا ضاحكين .

ثم دار نصر فانطلق كالهارب من شيء ، تحمل الريح وراءه عباءته وشملته . ووقفت سعاد تتبعه عينين واسعتين كعيني ظبية

تهيم . وتأملته في رشاقة حركاته كما تسبح ألحان ربابته على النسيم ، فعجبت ان لا تكون فطنت لذلك قبل اليوم . حتى اذا توارى عن بصرها عادت تحدّق في الماء ... فلما ابصرت وجهها أبت إلا ان ترى الى جانبه محيّا نصر وابتسمت له إيناساً ومداعبة . لكن شاة من شياهها فجأة عائت في الماء حيث تطالع سعاد وجهها وتتخيل وجه نصر ، فوحل الماء ، وهشت سعاد على الشاة التي فرّت وائبة .

ولم يمنعها ما زخر به صدرها من امل حي ان تشعر بثقل يقعد على قلبها ... فتنهدت .

الفصل الثاني

كان ذلك في اواسط الربيع . والايام يطرد بعضها بعضاً فيشرف الربيع على نهاية عمره ويتحول ما بقي من اعشاب هشياً ينـدثر في التراب . ونصر وسعاد لا يتلاقيان إلا على بعد او في هنيهة خاطفة كلما تلاقت بهما الطرق . لكن سعاداً كانت لا تفتـأ تزور الغدير لتطالع فيه وجهها وتستشفه عن وجه نصر . كذلك كان نصر لا ينفك يختلس الزيارات الى هذا الغدير . عـلى أن سعاداً ونصراً لم يكن ليروعهما شيء كهذا النقصان الذي يشهدانـه في ماء الغدير على التوالي . فالارض يشتد ظمأها مع تلاشي الربيـع وإقبال الصيف فتبل احشاءها بمـا تمتص ثم تمتص مـن حوض الغدير .

حقاً ان الطبيعة لقاسية ! هكذا فكر نصر وفكرت سعاد . انها يوم تجفف هذا الغدير ستمحو عنهما لوحة ذكرى هي اعذب الذكريات وامرأها على القلب . غير ان الطبيعة أمّ رؤوم ايضاً . فلسوف تملأ حوض الغدير مرة اخرى اذا ولى الصيف وأقبـل الشتاء ، ثم عاد الربيع . ولسوف ينحدر المطر غزيراً جداً هذا العام فتختزنه الارض في اعماقها حتى تطفح ، وحتى لا يبقى حوض على سطح الارض إلا دفق ، وحتى لا تبقى من هـذا البسيط الفسيح كله تربة بمقدار رقعة الكف إلا اكتست خضرة . فرعت غنيمات

نصر وشربت وسمنت وتكاثرت . فأصبح نصر غير هذا الفتى الفقير الذي تزدريه ام سعاد وابو سعاد ، وبات قادراً عـلى اداء المهر الذي يرضي ويغري .

لكن اليس هذا كله اماني ؟ وشد ما تكذب الاماني ! واذا كانت الطبيعة أمّاً رؤوماً فانها لا تكافىء ابناءها دائماً بما يعتقدون فيها من خير او بما يتملقونها به من صلاة وابتهال . ها هو الصيف يقبل بكُرَته النارية : شمسه الملهبة . وكأن هذه الشمس في منازل بني عذرة أشد احراقاً منها في مطارح الصحراء الاخرى . ان الدنيا لتبدو عند الظهيرة وكأنها مسقوفة بصفيحة كبيرة من النحاس الاحمر المحمي . وان الارض الرملية لتظهر كأنها فرشت بالجمر الذي دُقّ دقاً ونثر نثراً . ولقد هزلت الماشية هزالاً اصبحت معه ضلوعها بارزة تُرى على بعد وتعد عداً على الاصابع . أما ضروعها فقد تكمشت وكأنها جلود أيبست ودعكت دعكاً .

فكيف لهذا الامحال ان ينقلب الى خير مدرار ؟

ولو لم تكن لنصر ربابته لقتله حزنه ويأسه . ولو لم تكن سعاد تسمع ، ولو على بعد ، الحان ربابته اذا خيّم الليل وبرد الجو ، لماتت هي الاخرى يأساً وحزناً .

كان نصر اذا عاد الى خيمته عشاء ، فقعد على بابها ، يعلم علم اليقين بالهام من قلبه ان سعاداً في خيمة والديها تنتظر ألحانه . فيذبح اوتار الربابة ذبحاً ليخرج منها هذه الالحان النائحة الرتيبة التي تنطق عن الفطرة الكئيبة المستوحشة . وكان نصر يدرك ان امامه الشتاء بلياليه الطوال وجوعها وبردها وبرقها ورعدها . فكان سلفاً يغرّق سأمه في ألحان هذه الربابة ، ولا يسعد الا

حين يتذكر ان سعاداً تنصت اليه وانه يغرّق سأمها هي الاخرى في هذه الالحان التي تحشرج في قفص الظلمة وحضن الصحراء .

ولكن الطبيعة لم تخيّب اماني نصر في الشتاء برغم قسوتها في معمعان الصيف . ذلك ان الشتاء حقاً اقبل في هذا العام سمحاً فيّاضاً بمقدار ما كان الصيف كزّاً قائظاً . وكأن السماء لم تتدلّ منها سحب وغيوم ، بل تدلت منها قرَب حافلة ثقيلة راحت تصب من فوهاتها وثقوبها الواسعة صبّاً غزيراً لا ينضب . وتطاولت ألسنة البروق ملعلعة ، فكان يخيل لنصر انها ستمسح خيمته من الوجود . ولم يكن يؤذيه شيء كما تؤذيه هذه الرعود وهذه الرياح التي تصرع ألحان ربابته صرعاً فلا تصل الى سمع سعاد . وكان يفرح ان يجيء الليل صحواً على شدة ما يبرد الجو ، فيقعد على باب خيمته يذبح اوتار ربابته . لكن الحق انه كان راضياً في اقصى نفسه على كل حال . كان يبصر من وراء هذا الشتاء مراعي خصبة وغدراناً دافقة وقطيعاً سميناً . وكان يرى من وراء ذلك تحقيق امانيه في الظفر بسعاد .

واخذت ايام الشتاء تنصرم . وبدأت تباشير الربيع تطلّ في كل مطرح عين . فالسحب انقشعت عن الافق وأشرق أديم السماء ورقّ النسيم ودبّ الدفء في عروق الارض وبدت هنا وهناك رقع من البساط الاخضر .

فلم يبطيء نصر في الخروج بغنيماته الى المرعى . وقصد ، اول ما قصد ، الغدير الذي عكست بالامس مرآة مائه الصافي وجهه ووجه سعاد . فوجد الغدير يغصّ ويطفح ويموج . الا ان ماءه ما انفك بعيداً عن الصفاء . فحسب ذلك رمزاً لكدر يلقاه .

وفيما هو قافل قبل المساء ، لم يدهشه إلا ناقة وبعير ، في شرخ القوة والفتوّة ، أقبلا وكأن الارض انشقّت عنهما ، فانضمّا الى قطيعه . فعلم انهما شاردان وأيقن ان صاحبهما لا بد ساعٍ في اثرهما . فلم ينهر نصر الناقة ولا البعير ، واعجبه كيف يتبادلان الشمّ ويحكّان عنقاً بعنق . ولبث يتابع السير نحو الحي كمألوف عادته ، وهو يقدّر ان صاحب الناقة والبعير ، ان لم يدركه الساعة ، ادركه بعد قليل ، فاسترجع ماله . ولكن نصراً بلغ الحي ولم يلحق به احد . وحجاب الليل قد تكاثف ، واهل الحي قد تعوّدوا نصراً وغنياته الهزيلة . فلم يقف احد لينظر اليه فيرى ما يسوق من ناقة وبعير . او لعلّ من رآه حَسِب الناقة والبعير ملك وجيه في الحي عهد بهما الى هذا الفتى الفقير للرعاية .

وقضى نصر ليلة غلب فيها عليه الأرق وشغل البال . ولم يسرع على عادته تلك العشية الى الربابة ؛ بل ازدرد ما تيسّر له من تمرات قليلة ، ثم استلقى على ظهره في ارض الخيمة . ولم يفطن احد الى ان الحي في تلك العشية يعوزه شيء . بلى ، فطنت فتاة في خيمة قريبة تعوّدت ان تنام على ألحان ربابة نائحة رتيبة ، وهي موقنة ان هذه الالحان انما تتجه اليها دون سواها من سائر الناس وتبثها لواعج قلب ملتاع .

استلقى نصر على ظهره في ارض خيمته يفكر في الغدير الذي توقع ان يراه صافياً فوجده كدراً . وانتقل الى التفكير في الناقة والبعير كيف طلعا عليه فجأة فانضما الى قطيعه . وإنه ليعلم ان الابل تشرد ، وقد يبسم الحظ لمخلوق فتأنس اليه هذه الابل الشاردة ، ثم لا يهتدي اليها اصحابها فييأسون منها ، فتبقى

ملكاً لصاحبها الجديد . ان هذا ، ان صح ، كان معناه ان كدر الغدير رمز لفأل ، لا لشؤم ، كما حدثته نفسه . ولكنه يعلم كذلك ان اصحاب الابل قد يهتدون اليها ، وقد لا يكتفون باسترجاعها فيتهمون من وجدوها عنده بالسرقة والسطو . ومن وراء هذا كله عواقب غير محمودة لرجل مثله قليل النصير .

الا ان الصباح طلع على نصر ، فخرج غادياً بقطيعه . ومرّ النهار فلم يأت انسان في طلب الناقة والبعير . فأخذت الطمأنينة تتسرّب من هذه الناحية الى نفسه ، وطفق يضحك من سذاجته لتشاؤمه حين رأى الغدير غير صاف . فالغدير سيصفو ، لا شك . واكبر الظن ان هذه الناقة والبعير قد اصبحا ملكه بصدفة سعيدة او بحظٍ موفق .

ولكن اين هي سعاد ؟ انها لم تخرج بقطيعها وهو ينتظرها احرّ انتظار ليسمع منها كلمة ويختطف منها لمحة ولو على بعد .

ولم يفطن نصر الى ان سعاداً لن تخرج بالقطيع هذا العام . فقد اكتمل نضجها وباتت تنتظر الزوج . وقدّر نصر انه هو الذي بدأ يخرج بقطيعه في أوان باكر ، فلن تمضي ايام على عدد اصابع اليد حتى تخرج هي ايضاً بقطيعها فيراها .

على انه فوجيء يوماً برؤية عمه يدلف وراء القطيع الى المرعى . وفوجيء يوماً آخر برؤية امرأة عمه تتولى رعاية القطيع وتزجره بصوتها الاجش الكريه ، فلم يعوزه الفهم ان سعاداً محجوبة هذا العام في خيمة والدها . فبات وليس له وسيلة اتصال بها الا الحان وبابنه يناجيها بها كل عشاء على باب الخيمة .

وبالطبع ، لم يكن معقولاً ان يبقي أهل الحي لا يلحظون

ان قطيع نصر ازداد فجأة ناقة وبعيراً ، وان هذا البعير وتلك الناقة ليسا ملك احد من الحي . وكان عم نصر اول من لحظ هذا الحادث يوم لقي نصراً في المرعى . فعاد الى زوجته يقول لها بزهو الرجل الذي استطاع ان يسجل تفوقاً على المرأة في دقة اللحظ :

ـ اليوم رأيت ابن اخي نصراً يسوق في قطيعه ناقة وبعيراً ما ادري كيف حصل عليهما .

قالت له وهي تصطنع قلة اكتراث :

ـ ثق انه لم يحصل عليهما في غزو . لقد سرقهما .

وكانت العجوز ـ كالدول المستعمرة اليوم ـ ترى فرقاً بين الغزو والسرقة .

فصمت الشيخ . ولم يعجب عجوزه ان يصمت هذا الصمت السريع ، فاضافت قائلة :

ـ لعلك اغتظت ان تسمع مني هذا الكلام في ابن اخيك .

وضحكت ، متهكمة ، ضحكة كأنها الشوك « يتقصف » وينطحن تحت اضراس جمل قارح . فلما رأته ما زال مصراً على صمته ، دون ان تشفي فضولها ، بدلت لهجتها فقالت له :

ـ لعل احداً عهد بهما اليه للرعاية .

فأجابها باقتضاب :

ـ كلا ! هما له .

قالت مهتمة :

ـ هل تساوي هذه الناقة والبعير شيئاً ؟

أجابها : نعم . ان الناقة شابة . والبعير صغير السن . والعشب

هذا العام موفور ، والماء غزير . فليخرجن ابن اخي مـــن فقره فيصبح صاحب غنم وجمال حين يسمن قطيعه ويتكاثر .

فلم تدر المرأة هل يقول زوجها ما يقول مغتبطاً ام مستاءً . ولكنها أحست بنار الحسد تشب في صدرها فتأكل قلبهـــا ، وعادت تضحك متهكمة وتقول :

— وعندئذ تقبل به زوجاً لسعاد !.. ان الدم لا يتحول ماء . صدق المثل . والله لا رأى هذا الصعلوك فلامة ظفر مـــن رجل سعاد . أفهمت ؟

وكانت سعاد ساعتئذ ترتقب ألحان نصر على عادتها كل عشية . فسمعت هذا الذي يدور بين والديها مـــن حوار . وفرحت ان يكون نصر وفق هذا التوفيق الى ناقة وبعير . وحقدت على امها ان تتهم نصراً بالسرقة وتزدريه هذا الازدراء ، وتعاند هذا العناد كله في رفضه صهراً لها . أجل ، حقدت عليها الحقد العجيب الذي ينتاب البنت على الام في مثل تلك الحال .

لكن الحوار بين الزوجين لم ينقطع عند هذا الحد . فقد ابت المرأة الا ان تعرف كيف حصل نصر على الناقة والبعير . فسكتت هنيهة بعد ان استشاطت ، ثم عادت تقول لزوجها :

— ألم تسأله أنّى له هذه الناقة والبعير ؟

— كلا !

— انك مغفّل . غداً سأخرج انا بالقطيع فأسأله .

ولو ان نصراً كان مطلعـاً على هذا الاخـذ والرد لفهم ، حين لقيته امرأة عمه في المرعى ، لمَ وقفت تظلل عينيهـا بكفها من الشمس وتصوّب الى الناقة والبعير نظراً نهماً ، ثم لمَ شخصت اليه

كمن يريد ان يخاطبه ، لولا انه أدار لها ظهره مشمئزاً حانقاً متأذّي العينين ، ساعة وقع عليها بصره ولم يقع على سعاد .

وبقي امر الناقة والبعير ، وكيف حصل عليهما نصر ، سراً من الاسرار يشغل بال اهل الحي ، لكن لا بقدر ما يشغل بال ام سعاد . وأحب نصر ان يلغي هذا الموضوع ، فعمد الى حكاية اشاعها في الحي ، قال : ان انساناً غريباً استخلصه فاستودعه هذه الناقة والبعير ، على ان يستردهما متى عاد .

فتنفست ام سعاد تنفس ارتياح . وقالت لزوجها شامتة :

ـ لقد علمت ان الناقة والبعير يستحيل ان يكونا ملك هذا الصعلوك ابن اخيك .

وانقطع الحديث عن الناقة والبعير . واصبح جوّ الحي وليس فيه سر من الاسرار . على ان شيئاً غريباً لم يلبث ان اصبح موضوع عجب الجميع . فهذه غنمات نصر ترعى وترد حيث ترعى غنمات الناس وترد . وهذه ناقته وبعيره يأكلان العشب ويشربان الماء الذي تأكله وتشربه نياق الناس وبعرانهم . لكن ما شأن غنمانه تسمن وتطول اصوافها وتدرّ ألبانها كما لا تفعل غنمات الناس . وما شأن ناقته وبعيره يكتنزان الشحم واللحم على غير المعهود من سائر النياق والبعران . .

وابتهج نصر ، اول الامر ، بهذه البوادر من خير . الا انه كان في ساعات يقلق ويخاف . فقد سمع ان الفقير اذا همّ فالسعادة ، او همّت به السعادة ، حل به البلاء . وما كان يخشى شيئاً من صولة ذئب او سطوة غاز ، كما يخشى هذه العين الشرّيرة التي تحدجه بها امرأة عمه . على انه كان يراجع ذاته فيذكر كيف تشاءم يوم

وجد الغدير كدراً ثم لم يسفر ذلك عن اي مكروه اصابه . فراح ، اذا زار الغدير وطالع وجهه في صفائه واستشفّ وجه سعاد ، واذا تأمل قطيعه كيف يسمن ويسمن ، ثم عاد الى خيمته مساءً يناجي سعاداً بألحان ربابته — راح ينسى كل شرّ وكل امكان للشر .

غير ان عشية من العشايا اقبلت تحمل الى هذا الحي الساكن من احياء بني عذرة قادماً غريباً يمتطي فرساً ويتقلد سيفاً وقوساً ونشاباً ، فاهتز الحي لمقدمه اهتزازاً . لقد ظنوه رسولاً اوفده ابن أم الحكم من المدينة لجباية الضرائب او لانذارهم بوجوب دفعها في وقت قريب . وابن ام الحكم يومئذ والي الخليفة معاوية تمتد ولايته الى البادية . فاستقبلوا القادم الغريب بوجوه واجمة تكتم وراءها ارتيابا غريزياً ، وقلقاً طبيعياً ، يساوران ابناء الشعب تلقاء ممثلي السلطة ولاسيما الجباة الغلاظ .

لكن الواقع ان هذا القادم الغريب انما اقبل يسعى في طلب ناقة وبعير له شردا منذ ايام وايام . فسرعان ما انقشع الوجوم عن وجوه اهل الحي . غير انهم حاروا فيما يقولون . هل ينبئونه ان الناقة والبعير عند نصر ؟ ونصر قد انفق جهداً في رعاية البهيمتين ، فلا يجوز أن يضيع حقه فيهما . ولكن امرأة عم نصر لم تتردد فيما تقول . بل ما كادت تعلم السبب الذي من اجله وَفد هذا الغريب حتى صاحت :

— الآن اتضحت الحقيقة . انما كذب نصر . زعم ان انساناً استودعه ناقة وبعيراً ، وهو قد وجد الناقة والبعير شاردين فضمهما الى قطيعه .

ثم التفتت الى الغريب فقالت له بحيث تستوثق من انه يسمعها :

ـ يا رجل ! ان ناقتك وجملك عند صعلوك هذا الحي ز . . .

فانتهرها زوجها انتهارة لم تكن منتظرة وتوارأت غضباً في وجهها عيناه العمشاوان . وقاطعها المجتمعون بدمدمة مغيظة خنقت صوتها في حلقها . ولبث الغريب مدهوشاً لا يعلم ما يقول حتى علا صوت رزين ، صوت الشيخ سالم من اهل الحي يوجه اليه الخطاب :

ـ ثق ، يا رجل ، ان الناقة والبعير ان كانا لك فهما في مأمن عند نصر . وقد سمنهما تسميناً . ونصر على فقره فتى رفيع النفس ، استرعيته لي مالاً فأحسن حفظه ، فانا به خبير . ولا بد ان يحضر بعد قليل .

وهنا تشاجع الزوج عم نصر فقال بلهجة مضطربة تثير الضحك :

ـ انها لا تنفك تحمل على ابن اخي لانها تخشى ان يتزوج بنتنا .

فحدجت ام سعاد زوجها بنظرة مهددة . فأشفق الناس عليه مما سيصيبه منها اذا خلت به الليلة في الخيمة . وضحكوا ملياً وضحك القادم الغريب الذي أنس الى الجمع حوله فترجل عن فرسه .

واقبل في هذه الاثناء نصر ، وكان قد سبق اليه من أنبأه بما دار . فسلم على الرجل الغريب ورحب به ، ثم قال له :

ـ تذهب معي ، يا اخي ، الى خيمتي فوراً . وتنظر في قطيعي الصغير . فان وجدت بعيرك وناقتك عندي استرجعت حلالك على خير مما كان . واذا شئت بت الليلة في خيمتي الوضيعة مكرماً وانطلقت في الصباح .

قال الرجل الغريب : نطقت بالحق . وانا اعرف ناقتي وبعيري

بعلامة . هيّا بنا .

فمشى نصر رجوعاً الى خيمته . وتبعه الرجل الغريب . فما كاد يطلع على القطيع حتى عرف ناقته وبعيره بأثر كيّ في فخذيها ، ولكنه شهد فيها سمناً لم يكن من قبل . وصاح الرجل بالناقة والبعير معنفاً كأن البهيمتين تفهمان عنه . قال : ويحكما ! لقد اتعبتماني جداً . وليكونن عقابي لكما صارماً . ثم وجه الخطاب الى نصر فقال :

ــ أتصدق ، يا أخي ، ان هذه الناقة والبعير متعاشقان ؟ وقد أصررت على فصلهما ، فشردا شروداً بعيداً ، حتى لقد سعيت في طلبهما أسابيع مديدة وقطعت المسافات المترامية .

قال نصر وكأنه اكتشف لغزاً كان يحيره : أجل ، لقد لحظت ان هذه الناقة وهذا البعير يأبيان ان يفترقا ساعة . واذن ، فهما متعاشقان كما تقول . وشعّت عينا نصر وسبحتا في افق بعيد . ثم تنبه فعاد الى الرجل يقول له :

ــ أتقبل دعوتي ان تبيت عندي الليلة ؟ اني اقدّر ان موضعك بعيد ، وقد زحمك الظلام .

فأدار الرجل عينيه ورمق خيمة نصر . ففطن نصر الى حقيقة احزنته . لكنه قال للرجل : لا تزدرِ هذه الخيمة البالية . ان القلب الذي يسكن فيها كريم .

وخف نصر فأخذ من قطيعه شاة سمينة وغمس حد سكينه في منحرها . فلم يبق للغريب ان يرفض ضيافة هذا الفتى السمح .

ثم انهمك نصر في ايقاد النار . فأضرمها شعلة وردية اللون تحت هذا الدخان الذي تصاعد منها سحباً تبددت في الهواء .

وتلاعبت السنة اللهب تلقي أخيلة عابثة راقصة على الارض حولها . ثم لم تمض إلا دقائق حتى اقبل عم نصر ، وعلى اثره امرأتـــه . واجتمع نفر من اهل الحي ، ونصر يسلخ الشاة ويقطع لحمها فيشويه ويقدمه للضيف ولمن حضر من أهل الحي ، وبينهم ... فاتك .

ولكن فاتكاً لم يحضر للحم يأكله او لمشاركة في بهجة . فقد رفض اللحم حين عرضه عليه نصر ، وقد وقف صامتاً عليه سيماء الاستخفاف ولسان حاله يقول : متى اصبح مثل هذا الصعلوك يولم للناس ؟ ثم هز كتفيه وانصرف لم يستأذن بكلمة . فشيّعه نصر بعينين لاحت فيهما ظلال قاتمة اللون سرعان ما احتجبت . وارسل الضيف في اثر فاتك نظرة استغراب لا تخلو من اشمئزاز . ولامر ما احس الجميع كأن غمامة سوداء ثقيلة انقشعت عن المكان بذهاب هذا الفتى المتعجرف ... أما سبب ذهابه فربما لم يكن يجهله احد إلا الضيف .. إن فاتكاً إنما جاء يولم بعينيه النهمتين على سعاد ، بينما يولم الناس على لحم الشاة . غير انه خاب فألاً .

وأكل عم نصر حتى تخم . وكانت يد عجوزه لا تتحرك إلا في طريق واحد بين اللحم المشوي وفمها المفغور ابداً دائمـــاً كأنه تجويفة كهف في هضبة جرداء .

ثم شبع الضيف . وكف عن الاكل من حضر من اهل الحي . واضطر عم نصر وزوجته الى الشبع . فاستطاع نصر ان يفرغ لما يشتهيه حقاً ، وهو غير اللحم المشوي ، عنيت ربابته . فقـد كان يتصفح الوجوه حوله فلا يرى الوجه الحبيب اليه . ومـا كان في الواقع كبير الامل بان يراه . كان موقنـاً ان سعاداً قابعـة في خيمة والديها تنتظر ... تنتظر اختلاج ذرات الظـلام بنبض ناعم

من ألحانه . فسرعان ما نهض الى خيمته فأخرج الربابة . وجلس في مقابل النار وقد خفت لهبها ، يثير في هذا الجو المحاط بهالة سحرية ألحاناً تهم بصراخ ممزق، ولكنها لا تستطيع إلا النحيب والنشيج.

وثقلت على عمه وامرأته التخمة . ولم تساعدهما الالحان إلا على النوم . فانسحبا الى خيمتهما . واخذ بعض اهل الحي يتهامسون بنصر ويلمحون الى هذه الفتاة التي يعزف لها ألحانه . واستولى على الضيف شجن عميق ؛ فهمس في اذن رجل من اهل الحي :

ـ ان لهذا الفتى لشأناً .

فاجابه الرجل همساً :

ـ اجل ، هو محب لابنة عمه . وعمه يمنعها منه ، وامرأة عمه تراه افقر واحقر من ان يكون لابنتها زوجاً .

ـ قد استطعت ان استنتج شيئاً من هذا .

وقام الضيف من مجلسه منحنياً . فأمسك نصر عن العزف . وقال الضيف لمن حضر :

ـ شد ما تكبدت في سبيل ناقتي وبعيري الشريدين . لكن اشهدوا انها منذ الساعة حلال لهذا الفتى الكريم ، ولقد تعب من اجلها .

فحيا الجميع سخاءه . ولكن نصراً لم ينبس ببنت شفة . وعاد يذبح اوتار ربابته والليل يتقدم واهل الحي ينصرفون واحداً بعد آخر ، والضيف يثقل جفناه ، والنار تهمد وتستحيل الى رماد. حتى اذا لم يبق الا نصر والضيف دخلا الخيمة . فقال الضيف وهو يتهيأ للاضطجاع على اللبد المفروش :

ـ لا تحسبني ، يا اخي ، اردت ان اظهر فضلاً حين تركت لك

الناقة والبعير . لكني ساعة عرفتك عـــاشقاً مصدوداً ، وعرفت انكم بني عذرة تهلكون عشقاً ، رأيت من الفأل الحسن ان يأتيك محبان – ولو بهيمتين – قـد فازا باجتماع الشمل ، ورأيت مـن الشؤم القبيح ان آخذهما وافصل بينهما .

فشكر له نصر صنيعه ، وما كان ليشكره لولا تأويله اللطيف.

ثم قال الضيف بعد سكوت وجيز :

– ستصدقني الجواب ، يا اخي ، اذا سألتك سؤالاً .

– افعل .

– أبينك شيء وهـذا الفتى المتعجرف الذي ابى ان يأكل اللحم من يدك فانصرف يهز كتفيه استخفافاً ؟

بقيت شفتا نصر مطبقتين ... قال الضيف :

– احس كأن في حلقك غصة اعترضتك في الجواب .

قال نصر :

– اجل ، اظنه يريد ان يلوث زهرة قلبي . لكني وعدت ان افلق قلبه بنشابة من قوسي ان لم يرتدع .

– قدّرت ذلك ، ونعم ما اتصنع .

وساد في الخيمة صمت كثيف .

ثم قال الضيف وقد احس بالنعاس يقهر جفنيه :

– سأبكر ، يا أخي ، في صباح غد فأعود من حيث اتيت . وأنا عُروة ، ان شئت ان تعرف اسمي .

وخطر لنصر ان يسأل ضيفه عن قبيلته ومنازلها . لكنه خشي ان يظن الضيف انه يطمع في زيارته لمنفعة يرجوها . وغمر النوم الضيف وغرق فيه شاخراً الى قرار عميق .

غير ان نصراً لبث لا يستطيع اغلاق عينيه . ثم تسلل على رؤوس اصابع قدميه ، فقعد امام الخيمة يتأمل بقايا النار كيف تطفأ ، ويتأمل هذا الفضاء الرحب تلفه السكينة ويذرّي فيه القمر والنجوم غباراً رقيقاً من ضياء أميَل الى لون الرماد .

واذا به يرى ظلاً ترامى امامه من مسافة . فحدّق – واذا بشبح بشري في سوادٍ يدنو منه . خفق قلبه . لقـــد ارتسمت في لوحة خياله صورة فاتك . لكن يا للمفاجأة ! اقترب الشبح ، فكان هو سعاداً تمس الارض بقدميها مسّاً ناعماً رقيقـاً كتسلل النوم الى الاجفان .

قال لها والكلمات تلتصق بحلقه :

– سعاد ماذا جاء بك ؟ لو ابصرك احد لكانت فضيحة دونها الموت .

قالت له وانفاسها المتسارعة تزاحم كلماتها :

– أتيت اقول لك ، يا نصر ، اننا على العهد . وأبي وأمي نائمان نوم تخمة . لقد اطعمتهما كثيراً يا خبيث !

قال لها بلهجة من يتوسل اليها ان تمكث :

– عودي ، عودي مسرعة الى موضعك . واطمئني الى ان الحظ يبتسم لنا . لقد اقبل هذا الغريب ، ضيفي الليـــلة ، يستعيد ناقته وبعيره ، لكنه ابقاهما لي .

– عرفت ذلك بما كان يتحدث به ابي وامي بعد رجوعهما الليلة .

وأدْنت من وجهه عينيها المتقدتين ، وأدنى هو من وجههـــا عينيه . فلمعت شرارات ، وتنادت الشفاه تنادياً اخرس ، الا انه

صارخ بليغ . ولكن الحياء منع الشفاه ان تجيب ... او هو حب بني عذره .

صمت . صمت ودت معه روحان ان تنطلقا في نجوى صافية مترقرقة لا صخب فيها . ولكن كيف باللحم والدم ، وهما يأبيان الا ان يصخبا في جوع الى اللقاء فيجعلا الصمت مرهقاً ثقيل الوطأة .

وقال نصر بصوت هامس عراه الجفاف :

— سعاد ، هل لم يزل فاتك يتعرض لك ؟

ففاجأها سؤاله مع هذه الانتقالة الذهنية السريعة . وخافت ان تتلكأ في الجواب فقالت له :

— ما الذي دعاك الى ذكر هذا الجلف ؟ لا عليك منه ، يا نصر .

ومضت تحدس في سرها : ترى هل درى نصر بما كان ؟ هل علم ان فاتكاً انتهز الليلة انشغال اهل الحي ، فاقبل ، فوقف عند خيمتها يدعوها اليه ويعدها بالزواج ، ويهددها بانه سيختطفها في وقت قريب بعد ان يلتحق بحرس الوالي في المدينة فيصبح فارساً ذا رمح وسيف وحصان ؟ كلا ، لا يمكن ان يكون نصر قد عرف . فلن نذكر له شيئاً اذاً ، والا كانت العاقبة وخيمة .

قال لها :

— اراك استغرقت في التفكير ، يا سعاد . لقد حضر فاتك الليلة مع اهل الحي ، ثم سرعان ما انصرف مستخفاً مستهزئاً ، لم يقبل ان يذوق طعامي . فلأفلقن قلبه يوماً .

قالت له وهي تتمثل في ذهنها ما فعلته الليلة بفاتك :

— لا عليك منه ، يا نصر . اني قادرة ان اهدده بفضح امره

فيجتمع عليه أهل الحيّ ويصبح مضغة الافواه . وقادرة بنفسي ان افلق قلبه اذا تجاوز حده . لكني سمعت انه سيلتحق جندياً بحرس الوالي فيريح الحي من غلظته . والآن ...

ـ والآن تعودين . قال لها بصوت فيه حنين رجولي . واخذ كفيها بكفيه وتعانقت نظراتهما عناقاً حنوناً طويلاً .

ثم انطلقت تدرج بقامتها القصيرة كأنها القطاة . لكن بدا عليها وهي مسرعة كأنها تقتلع قدميها اقتلاعاً من بقعة ارض تغريها بالبقاء . ووقف نصر يرمقها وهي تبتعد . وخيل اليه ان هذه النجوم فوقه قد انحدرت الى سماء تتلألأ فيها بهجة واملاً بالمستقبل .

ثم اوى الى خيمته فاضطجع . لكنه لبث مستيقظاً يستعيد هذه القسمات الحلوة التي نعمت بها عيناه ، وهذه الكلمات التي انسكبت نغماً في اذنيه خلال هنيهة راغدة . وحلم في يقظته احلاماً اشهى من احلام النوم .

الفصل الثالث

ولى ربيع العام ، لكنه غادر لنصر قطيعاً شبعان ريان . وزحف الصيف بوهجه ونصر لا ينتظر شيئاً كأن يكون شتاء هذا العام كشتاء العام الماضي فاتحة لربيع خصب .

على ان هماً عظيماً جدّ لنصر فربض على قلبه كالجبل ... اذا كان فاتك قد غاب عن الحي فالتحق جندياً بحرس الامير ، فان العيون اوشكت في طموحها الى سعاد تصبح كلها عيون فاتك . وطفقت أم سعاد تتباهى بجمال وليدتها وتعلن عنه اعلاناً كمن ينادي على بضاعة ، وهي ابداً حريصة على ان تذكر بالمهر الغالي الذي لا قدرة عليه الا لامير او ثريّ .

فكيف يصنع نصر اذا اقدم هـذا الامير او الثري يخطب سعاداً ، وكيف تفعل سعاد للحفاظ على العهد ؟

وحقاً لم يبطيء هذا الخاطب المنغص ان اقبل ، من احدى الحواضر ، على بادية بني عذرة يمتطي فرساً ويرفل في حلة ثمينة وتصحبه حاشية . كان غنياً جداً ، وكان شاباً حسن الطلعة ، تأدى الى سمعه حديث سعاد من واحد من اولئك الخطاب الذين يتنسمون للاغنياء اخبار الجميلات . فقدم الحي وذبح الذبائح من شياه ونياق حتى لم يبق من أهل الحي صغير او كبير الا وقع له نصيب وتحدث بغنى هذا الامير الغريب وكرمه .

وامتلأت ام سعاد بما أكلت . لكنها كانت اعظم امتلاء بما أحست من كبرياء . واغتنمت فرصة فقالت لزوجها :

ـ انك زهيت لان هذا الصعلوك ابن اخيك ذبح شاة عجفاء ليحمل رجلاً على الحياء فيترك له ناقة وبعيراً . فاشهد الآن كيف تكون الذبائح . والله لازوجن هذا الفتى الغني السخي ، وسواء عليّ ان ترضى او تكره .

وصفقت ام سعاد بكفيها ونادت ابنتها من داخل الخيمة لتخرج الى الفسحة امامها فيراها خاطبها .

لكن ما اشد ما كانت دهشة الام حين طلعت البنت مقنعة الوجه بالسواد . لقد مست القدر بأطراف اصابعها ثم مسحت على وجهها . فبرزت ، حين برزت ، عابسة مقطبة منبوشة الشعر تحملق بعينين تقدحان النار ، وتغتصب ضحكات متقطعة بلهاء . كانت لها حقاً سحنة المجنونة . ولم يكن على طلعتها اثر لهذا الجمال الذي شُهرت به . وجعلت تلوح بيديها تلويحاً عصبياً وتشد ثيابها تريد تمزيقها وتصرخ بأمها وأبيها : أبيعاً تبيعانني ؟ ثم تلتفت الى الغريب الذي جاء خاطباً فتنفجر به مقهقهة وتقول له : خدعوك ! خدعوك ! سمعت بحسناء جئت تشتريها ، فاذا بهم يعرضون عليك مجنونة ! فانصرف ، جزاك الله عن مشقة تكبدتها .

كانت سعاد تصطنع الجنون اصطناعاً . وقد عجزت عن حيلة أخرى تتدارك بها الكارثة التي تنزل بها اذا تزوجت خاطبها الغريب . على انها وفقت توفيقاً عجيباً في اصطناع الجنون وتمثيله . ولعلها في تلك الهنيهة لم تكن تخلو حقاً من شيء من الجنون الصحيح .

ثم اخذها وجوم وسهو عميق . واستولت على والديها وخاطبها وعلى الحاضرين جميعاً بهتة شاملة ملؤها الجزع لما اصاب هذه الفتاة من بلاء مفاجىء . وانسحبت سعاد الى داخل الخيمة وهي تسائل نفسها على صغر سنها : أليس لفتاة ان تدفع عنها شراً الا باصطناع شر اعظم ؟

وانفض من حضر من اهل الحي في سكينة كسكينه الاشباح . وقام الخاطب الغريب فانصرف انصراف الشاري عن صفقة غير موفقة . ولحق بسعاد ابوها ثم امها فوجداها منكبّة ارضاً على وجهها ، يضطرب جسمها بما تنشج من نشيج تحاول ان تكبته لئلا يسمع .

وشاع في الحي ان سعاداً جنت . وانتهى النبأ الى نصر . فكاد يجن هو الآخر . واسرع الى خيمة عمه مستفسراً . لكن امرأة عمه استقبلته مكشرة تهز سبابتها في عينه حتى لتوشك ان تفقأها ، وردته على عقبيه . فاقام نصر يتحين الفرص للقاء سعاد .

ثم لم تنقض ايام حتى طفقت ام سعاد تتحدث في الحي ان ما اصاب ابنتها لم يكن الا عارضاً فزال . وحقاً رجعت سعاد الى مألوف عادتها منذ ان استيقنت ان خاطبها الغريب ذهب الى غير رجعة . على انها لم تنس ان نصراً سيجزع لما يسمع من خبر جنونها . فعزمت على ان تلقاه . وليس اصلح من ظلمة الليل تلقاه فيها خلسة اذا نام والدها وتمكن النوم من الحي كله .

وعلى هذا انسلت مرة اخرى في احدى الليالي شأنها من قبل ، بعد ان خمدت النيران وامسك نصر عن العزف على ربابته واطبقت على المكان سكينة خرساء .

فلما بلغت خيمة نصر كفاها ان تجر نفساً طويلاً حتى استيقظ ولقيها كالمخبول يفرك عن عينيه اثر النوم .

قالت له في سذاجة : انيت لاخبرك انني غير مجنونة . لكنني سأجن كلما خطبني سواك .

قال لها : هل حدثتك بحديث الناقة والبعير ، يوم وجدتهما شاردين ، لمَ شردا ؟

قالت : ما اذكر .

قال : ان صاحبهما لما جاء في طلبهما حدثني انهما متعاشقان ، وقد شردا لما اصرّ على الفصل بينهما .

فأضاءت لمى ثغرها ابتسامة حلوة ، وقالت :

ـ تعني ان نشرد .

قال : ان لم يكن بد من الشرود .

قالت : نحن على العهد ... ودارت لتنصرف .

قال : قبل ان تمضي زيدي من انفاسك قليلا في خيمتي ، وهاتي يدك ليدي . فتنهّدت واسلمت كفّها الطفلة الى كفه لحظة اغمضت فيها عينيها ، وردّت رأسها الى وراء عارضة نقاط الوشم الزمرّدي في ذقنها ، مفتوحة الشفتين فتحاً رقيقاً . فلم يملك الفتى ان دنا من تينك الشفتين بشفتيه المختلجتين ، ولكن دنوّ متردد اغراه بالسرقة شيء عزيز نفيس يخشى لمسه . ولمحته الفتاة خلال اهدابها المسبلة الطويلة يدنو منها هذا الدنو ، فتراجعت منذعرة وفتحت عينيها فتحاً كبيراً عن سؤال دهشة وتعجّب . قالت له وكأنها تئن انيناً ولا تتكلم : أولسنا عذريين ، يا نصر ؟ أجابها وهو مسمّر العينين بالارض لشدة خجله : نعم . ولكن ... ولصقت بقية الكلمات

بحلقه . فانفلتت منه وغادرته في ارتباكه . ولم تكن اقل منه ارتباكاً وهي تبتعد متغلغلة في الظلمة .

... وكان طبيعياً ان لا يصدّق احد ام سعاد اذ تقصّ ان ابنتها عوفيت من نوبة جنونها . وكثر اللغط في الحي بهذه الام التي تعلن عن جمال ابنتها اعلاناً ، وتأبى ان تزوجها الا من امير او غني طمعاً في غلاء المهر ولو ادى ذلك الى جنون الفتاة . وانقسم اهل الحي في شأن الاب . فمن قائل : انه ليس اقل جشعاً من امرأته . ومن قائل : انه مسكين قهرته امرأته على ارادته . ولو كان له الامر لرضيَ من ابن اخيه بمهر يسير وزوّجه الفتاة .

هذا ، وايام الصيف تنقضي سراعاً ، والشتاء يدنو ، وقطيع نصر لا يبدو عليه اثر من هزال لما كنز من شحم ولحم زمن الربيع . وحين اقبل الشتاء لاحت التباشير بانه سيكون خيراً . وجاء الربيع خصباً كربيع العام الفائت . ولقحت الناقة . ولم تبق شاة عند نصر الا لقحت . فتضاعف قطيعه او اوشك .

ولقيَ نصر عمه يوماً في المرعى . فقال له عمه بعد ان وقف يحجب الشمس عن عينيه العمشاوين بكفيه ويتأمل القطيع السارح :

ــ يا ابن اخي ، ارى ان الله بارك في قطيعك .

اجابه نصر : أيعجبك هذا ؟

قال عمه : ولمَ لا يعجبني ؟

قال نصر : ظننتك كامرأتك .

وسادت هنيهة صمت ثقيل . ثم استأنف نصر يقول : لو شئت لأصبح هذا القطيع كله لك .

قال عمه وقد انتعش النور الكابي في عينيه : وكيف ؟

قال نصر : تزوجني سعاداً فأدفعه لك مهراً . ام انت تخاف امرأتك ؟

قال عمه : انها مثلي يعجبها قطيعك . لكن كيف تصنع اذا تزوجت سعاداً ولا قطيع لك ؟

اجابه نصر كمن يتهكم : أنتظرك ، يا عم ، حتى تموت انت وعجوزك فترث سعاد القطيع . بقيَ ان تزوجني سعاداً ولا عليك .

قال عمه وعيناه مغرورقتان : اترك لك زوجين من غنم ، يا ابن اخي . وثق ان امرأة عمك ما كانت لترضى لولا انني جادلتها اعنف جدال .

قال نصر بمرارة : ولولا ان الامير او الغني الذي تنتظره امرأة عمي صهراً لم يأتِ ، لان سعاداً آثرت ان يسمع عنها الجنون على ان تكون سلعة للتجارة .

... بعد أيام ، في ليلة ربيعية صافية من ليالي البادية ، قام عرس في حي بني عذرة – عرس فقير ، بساطه الرمل وزينته نجوم السماء ، زفت فيه فتاة الى فتى وكلاهما لا يملك الا الشباب والآمال . لم يكن في العرس غير ذبيحة او ذبيحتين مما تبرع به بعض الاجواد . ولم تشهد العرس عجوز سعاد لانها كانت مشغولة بفحص القطيع الذي تسلمته مهراً لفتاتها . راحت تقول : خدعنا نصر ، فليس قطيعه سميناً بقدر ما كنا نظن .

لكن حسب هذا العرس على فقره انه لم يكن كبعض الاعراس مأتم قلب سلخ عمن يحب وضم الى من يمقت . لم يكن

كبعض الاعراس تخميطاً للمرأة في رمس يسمى بيتـــاً زوجياً .
وفارقت ربابة نصر ليلتئذ الحانها الرتيبة النائحـة ، فكانت تغرد تغريداً . وألسنة النار التي اوقدت للمناسبة السعيدة بدت كأنها تتراقص على تموجات الغبطة العميقة في اغوار هذه الالحان .

اما سعاد فكأنما جمع لها ربيع الصحراء كله ذلك العام .

ولم تنس تلك الليلة ، ساعـة انفردا في الخيمة فأسلمت اليـه شفتيها ، ان تسأله ، وفي صوتها ، هذه المرة ، نبرة من دلال لا جد : أولسنا عذريين ، يا نصر ؟ فأجابها غير مرتبك وعيناه ملء عينيها : اجل ، ولكن ألسنا من بني الطبيعة قبل ان نكون من بني عذرة ؟

الفصل الرابع

العجيب ان امرأة عم نصر لم تكن كاذبة حين قالت ان قطيع نصر ليس سميناً بقدر ما كانت تظن . فقد رُفعت البركة دفعة عن هذا القطيع منذ ان تسلمته. اصاب الهزال غنماته واصاب الناقة والبعير . وكأن اليد التي كانت هذه المرأة تجس بها القطيع يد سامة واصابعها أفاع وحيات . ثم ما لبث الموت ان لحق ببعض الغنمات وفاز منها الذئب بنصيب . وما لبث البعير وناقته ان جربا ، وبعد ذلك شردا فضاعا .

فقالت العجوز لزوجها : لعن الله الساعة ... اقسم ان هذا الصعلوك ابن اخيك لساحر على اتصال بالجن ، والا فكيف طرأ على سعاد طارىء الجنون يوم جاء يخطبها ذلك الفتى السري الغني ، وكيف يقع اليوم لهذا القطيع الذي اخذناه مهراً لفتاتنا ما يقع من عظيم البلاء ؟

ورددت العجوز مثل هذا القول لبنتها سعاد ، تريد ان تزرع الخوف في قلبها من نصر . وسعاد تلحظ ان زوجها لا يأتي عملاً الا وفّق فيه . فقد رعى قطيعاً لرجال موسرين من اهل الحي بعد ان دفع قطيعه مهراً لابنة عمه ، فكان القطيع ينمو ويزداد برعاية نصر . وكانت مكافأة نصر لا بأس بها ، رغم ما حاول اصحاب المال ان يأكلوا من تعبه . وقد صنع نصر قوساً وفق بها في

يومين الى قنص غزال وصرع ذئب . وكان زوج الغنم الذي بقي له من قطيعه يسمن ويزكو . فاذا استمرت الحال على ما هي عليه ، فنصر سيعود صاحب قطيع صغير في زمن قريب .

ووجدت سعاد ان مثل هذا الامر بعيد من ان يكون طبيعياً . فلما سمعت من امها ان نصراً ساحر ، على اتصال بالجن ، لم تصدقها . ولكنها لم تكذبها التكذيب كله . واصبحت تتأمل نصراً ، فاذا هو غير فائق الحسن اذا قيس بالمعروف المألوف من مقاييس الجمال . فهذه اذناه في جانبي رأسه دقيقتان كأنهما اذنا جرذ ! وضحكت للتشبيه . ولكنها مع ذلك تحبه حب عبادة . والذي تعلمه من نفسها انه لم يكن ، على حبها له من قبل ، يثير فيها ما يثير اليوم من شغف عنيف . لقد حبك لها ، في خفاء وفي صمت ، خيوطاً غير منظورة شدها بها اليه شداً محكماً . فليس بالمستبعد ان يكون ساحراً ، على اتصال بالجن ، كما تقول امها .

فعزمت يوماً على ان تسأله اذا انتهت هموم النهار ففرغ لها وفرغت له ، ليلاً ، في هذه الخيمة الوضيعة التي ملئت هناء بهنائهما . قالت له وقد ضرب سكون الليل روافه على الدنيا :

— يزعمون ، يا نصر ، انك ساحر ، على اتصال بالجن ، فهل صحيح هذا ؟

فانفرجت شفتاه السمراوان بابتسامة عن اسنانه البيضاء التي لمعت في العتمة . قال لها :

— ومن هؤلاء الذين يزعمون هذا الزعم ؟

ولم تكن سعاد لتخبّيء عنه امراً ، فأجابته على الفور :

— انها امي .

– وهل صدّقت العجوز ؟

– يحيّرني، يا نصر ، كيف تنمو في رعايتك القطعان ، وتضمحلّ في رعاية غيرك ؟

– تعنين امك مثلاً . تلك امرأة ، يا سعاد ، لا تحب . تلك امرأة تعيش على الحسد والطمع الاعمى . ولا بركة على يدِ من لا يحب .

فسكتت مقتنعة .

فاضاف مستأنفاً الكلام : هو الحب يصنع العجائب ، فيُظن ذلك سحراً واتصالاً بالجن . وابتسم ابتسامته العريضة التي تلمع في أثرها اسنانه البيضاء وتتقلص اذناه الجرذيتان . فختمت سعاد على شفتيه بقبلة خاطفة عنيفة ، وفركت بكفيها اذنيه الدقيقتين .

ولو ان عجوز سعاد كانت امرأة اخرى لنزلت على حكم الواقع . لكن العجوز – وتلك طبيعتها – أبت ان تطمئن الى المصير الذي ظلت تزعمه مجحفاً بابنتها ، وهي في الحقيقة انما تعتبره مجحفاً بذاتها لانها لم تستوف المهر الذي يليق بجمال ابنتها ، عدا ان هذا المهر قد نفخ فيه ابليس نفخة ملعونة فطار او اوشك ان يطير .

وتربصت ام سعاد على مضض تنتظر اليوم الذي تستطيع فيه ان تفصل سعاداً عن نصر لتزوجها رجلاً تستوفي منه المهر كما يجب ان يُستوفى ... حتى لاحت لها ، آخر الامر ، فرصتها المطلوبة .

ذلك ان اهل هذا الحي المنقطع في الصحراء اصبحوا يوماً يتحدثون بامر عظيم، يرددون ما سمعوه من ان ابن ام الحكم قادم من المدينة غداً للصيد في تلك الجهات . ومعروف مَنِ ابن أم

الحكم . هو الوالي عـــلى هذه البادية ، نصبه الخليفة في دمشق يومئذ : معاوية بن ابي سفيان . وبالطبع لن يخرج ابن أم الحكم الى الصيد الا ببطانته وخدمه وخيله . ولعل خروجه هـذا ليس في سبيل الصيد بقدر ما هو عرض لابهة الدولة ، وغرس لهيبتها في الصدور ، ومناسبة يفرّق فيها على سبيل الاحسان والهبة بعض ما يستقطر من دم الرعية وعرق جبينها ، فيتناقل الناس حـديث كرمه وكرم الدولة التي يمثلها .

وكان حتماً ان تسمع ام سعاد بهذا الحديث الخطير ، وان تفكر في اغتنام هذه الفرصة النادرة حتى اقصى حـد . واذا كان الوالي يطلب السنة تلهج بالثناء عليه وعلى الدولة ، فلسانهـا في هذا المجال اطول لسان . فلمَ لا يصيبها حظ من هذه العطايا التي ينوي تفريقهـا ؟ بل اذا كان الوالي يخص الفقراء بعطفه دون سواهم ، فهي فقيرة جداً تلف قطيعها وهلك .

وعلى هذا عزمت في نفسها ان تتعرض له فتلقـــاه . سوف تخرج غداً ببضع غنيمات من قطيعها الاعجف ، وسوف تلبس ثوباً مخرقاً لا يستر منها الا مواضع العورات ، وسوف تمضي الى ابنتها سعاد فتذرف لديها الدموع وتقول لها : اخرجي معي نلقَ الوالي ونبكِ بين يديه ، فأزعم انني ارملة وانك يتيمة ، ليس لنـــا ما يمسك ارماقنا . انه عندئذ لن يبطيء عن الاحسان الينا .

وانطلقت ام سعاد الى ابنتها ففاوضتها في الامر ، وسكبت دموعاً غزيرة ، وأثارت شفقتها على ابيها ، فقالت سعاد :

ـ رويدك حتى اسأل نصراً رأيه .

ولم تنطل الحيلة على نصر حين كلمته سعاد . أدرك فوراً ما

ترمي اليه العجوز من غاية خبيثة . علم انها انما تريد ان يقع نظر الوالي على سعاد وجمالها الفاتن ، فلعل شيئاً بعد ذلك يحدث .

فقال نصر لسعاد :

— هذا امر لست استطيع ان آذن لك بـه . ان عجوزك تنوي استدراجك والتغرير بك . ثم ما شأننا نحن والوالي ؟ لئن اشتهت امك ان تظفر ببعض الفتات ممـا يتساقط مـن مائدته ، فليست بنا حاجة .

فأسرعت سعاد الى امها تبلغها الرفض . وكانت العجوز قـد اقنعت الاب الضعيف بصواب ما عزمت عليه ، وأطمعته في عطاء الوالي . فاجتمع الوالد والام على البنت الرقيقة يسترحمانها ان لا ترد لهما هذا الطلب .

قالت سعاد : ولكن نصراً لا يرضى .

أجابتها العجوز بمرارة : كأن نصراً هو الذي حملك في احشائه الاشهر التسعة ، وكأنه هو الذي وضعك الى الدنيا صارخاً متوجعاً ، ثم كأنه هو الذي ارضعك من ثدييه وسهر عليك الليالي .

وقال الاب مسايراً امرأته : وكأن نصراً هـذا هو الذي افرغك من صلبه . يا ابنتي ، ساعدينا بما لا يضيرك ولا يكلفك شيئاً .

فاغرورقت عينا سعاد وقالت لوالدها :

— ان نصراً لا يريد . وقد قال لي ان امك تنوي استدراجك والتغرير بك .

فاضطرب الوالد وامتقع لونه وحـدج امرأته بنظرة مستريبة من عينيه العمشاوين ، وقد فهم حقيقة ما تعني كلمة نصر ، لكن العجوز اجابت فوراً دونما ارتباك :

ـ طبعاً ! طبعاً ! اريد استدراجك . ان الوالي ساعة يقع عليك نظره في هذا الثوب الخشن البالي وهذا الجلد المدبوغ بالشمس ، سيجن جنوناً وينسى جواري المدينة ومغنياتها ، وبنات المقاصير والحمامات في دمشق . يا ابنتي ، قولي لنصر ان للحمق والسخف حـــداً .

ولأول مرة أذنت العجوز لنفسها ان تستهين بجمال ابنتها .

وكأن الشيخ اقتنع بما قالت عجوزه فهزّ رأسه علامة الموافقة .

فعادت سعاد الى نصر وقلبها في قبضة قوية تشده وتعصره . قالت له :

ـ يا نصر ، ان لأبي وامي عليّ حقاً . وهما في حالة يرثى لها . ولو كنا نحن في يسر لوسّعنا عليهما من مالنـــا . وانا لا ارى بأساً في ان اخدمهما بما لا يضيرني ولا يضيرك . وهب ان امي كانت لها النية السيئة التي تحسهـــا ، وتوجس منهـا شراً ، فما احسب ان الوالي سيهتم لي ، ولديه بنات المقاصير والحمامات في دمشق وجواري المدينة ومغنياتها .

قال نصر :

ـ اذن فأنت وشأنك ، يا سعاد . قالها باطراف شفتيه دون ان يكون فيها صدى من قلبه .

وبزغت الخيوط الاولى من صباح اليوم التـالي ، فاذا الطريق التي تمتد من الحي متجهة نحو الفضاء الطلق تحمل امرأتين : عجوزاً قردة وبنتها الوردة ، تسيران في ثيـــاب رثّة وتسوقان امامهما بضع غنمات هزيلات .

وفي الآن نفسه ، كانت في موضع من هذا الفضاء الطلق ،

حول الغدير الذي طالما تلاقى عنده نصر وسعاد ، خيام كبيرة تنصب وخيول كثيرة تربط – تلك خيام الوالي ابن ام الحكم وخيول حاشيته وخدمه .

وبقيت تسير المرأتان حتى ارتفعت الشمس في القبة في ذلك اليوم من أواخر الربيع وأوائل الصيف . ثم اتيح لها ان تشرفا على الموضع الذي اقيم فيه مخيّم الوالي . فخفق قلباهما ، وراعهما على بعد ذلك القماش المقصب الذي صنعت منه الخيام يتألق في شعاع النهار ويمتزج تألقه بتلألؤ الغدير ولمعان أسنّة الرماح التي ركزت في الرمل سياجاً رمزياً للمخيّم . وانجذبت العجوز نحو الموضع انجذاباً . إلا انها هابت ان تدنو منه فوراً . وكان همها الاول ان تلمح شخص الوالي لمحة ولو على بعد . واشتهت لو ان واحداً من اولئك الخدم الذاهبين الآيبين يلتفت اليها ويدنو منها فتسأله عن الوالي : أيّ هو ؟ واين هو ؟

فاما سعاد فما لبثت ان رجعت بها الذكرى الى يوم كانت تلقى نصراً في هذا المقام ، واستغرقت استغراقاً حلواً عذباً .

وظل الخدم يذهبون ويؤوبون منهمكين في اعمالهم . وام سعاد تلحظ وترتقب الفرص ، ولا تفتأ تهش على غنماتها الهزيلات . وسعاد في استغراقها وسهوها تبدي مللاً وتتحدث بالعودة الى الحي ، فتنهرها امها وتصيح بها :

– لم يئن لك ان تشتاقي الى نصر ! والشمس تزداد ارتفاعاً في القبة حتى دنا الظهر .

فرأت ام سعاد ان لا معنى لهذا الانتظار الطويل الذي خشيت ان يودي بصبر بنتها . وعزمت ان تمضي الى الخدم

فتسأل عن الوالي مهما تكن العاقبة .

لكن في الهنيهة التي اندفعت فيها نحو الخيام ، سمعت وقع حوافر . قالت لها بنتها : اني ارى سحاباً من غبار يثور وينعقد في وهج الشمس ويقترب منا .

وبعد قليل كانت ثلة من الخيل ، عليها الفرسان ، تحيط بالأم وبنتها . ونبحت الكلاب ساعة رأت هاتين الاعرابيتين في الثياب الرثة . ونفرت الغنمات الهزيلات . فارتاعت سعاد — ارتاعت لمشهد هؤلاء الفرسان على الخيول المطهمة ، ومعهم السيوف والقسيّ والنشاب . ولأمرٍ ما طافت بذهنها صورة فاتك ، فتخيّلته بينهم ودبّت فيها رعدة خفيفة . على ان امها ملكت هدوءها ، فتقدمت من الفارس الذي يسير في طليعة الخيل وقد قعد بطنه قدّامه على سرج الجواد ، واحتقن وجهه الفرزدقيّ من شدة الجهد ، وغطّت صدره لحية عظيمة ذرّ عليها رماد الشيب ، فحيته بالولاية . ولم تخطيء فراستها . دلّتها غريزة العبد التي فيها على من هو السيد . ومسحت بيدها على عنق جواده الذي يتصبب عرقاً ويضطرب منخراه بما يدفع ويجرّ من انفاس .

فنظر الوالي الى فارس من حاشيته ، كان الى يمينه ، وقال له :

— ما رأيت كاليوم قلة حظ . لم اوفق الى صيد اصطاده . ثم ها انا اقع على اعرابية عجوز .

واذا بالفارس يحول الى الاعرابية وجهاً مقمطاً بشملة ، تعقف فيه شاربان متعجرفان ، وبرقت عينان نهمتان . انه فاتك اياه ! فقابلته العجوز بابتسامة متزلفة على شفتيها الجافتين ، وغمزته غمزة ابليسية من عينيها الحرزيتين الغائرتين . فلوى فاتك عنقه فهمس

في اذن الوالي همساً غير قصير .

ثم تكلمت ام سعاد ، قالت :

ـ سيدي الوالي على حق حين ذكر قلة حظه اليوم ، اعاد الله حظه موفوراً مشرقاً . اما انا فلم اجد كاليوم سعادة حظ . لقد لقيت الامير ! ولو كان لي ان استوقف الزمان لاستوقفته وانا في عتبة العشرين لالقى به سيدي . لكن الانسان لا يلام اذا قصر عن المستحيل ، والشجرة القديمة لا تلعن اذا اوشكت ان تيبس ، بعد ان تنبت شجرة احسن منها رونقاً ونضارة .

قال الوالي : قاتلك الله ما افصح لسانك واجرأ جنانك ! ارنا شجرتك التي انبتها والتي تدعين لها الحسن والرونق . وذهبت عينا الوالي ، في صحبة عيني فاتك ، تلتمسان هذه الدمية الرشيقة التي وقفت على بعض البعد مديرة ظهرها .

فصاحت الاعرابية : سعاد !

فانفتلت الدمية في تباطوء وحياء وجلال . وأطل وجه اسمر رقيق بمقلتين تنفذان الى الاعماق وتقتنصان النفس ، وتتكسر على اشعتها اشعة كل نظر . واسرعت ام سعاد الى اصطناع الغصة في صوتها وقالت :

ـ عجوز فاقدة النصير ، ويتيمة مسكينة ، ارملة مقهورة ، ايها الامير . ليس لنا الا هذه الغنمات العجاف وما يهب لنا الكرماء من فضلهم وفضل الله .

على ان ابن ام الحكم لم يكن يصغي الى ما تثرثر به هذه الاعرابية . كان يوميء بيده الى سعاد ان تقترب ، وهو متحلب الريق في الفم ، ويميل على فاتك بجانبه فيقول له همساً او كالهمس :

سترى ان صيدي اليوم كان خيراً من صيدكم جميعاً ! وفاتك بوشك ان لا يعي ما يسمع ، فهو يحاول ان يصمد بعينيه امام نظرات سعاد القادحة ، ويتمثل يوماً يستطيع ان ينفذ ما هددها به من خطفها والانطلاق بها فوق جواده ليقضي وطراً ابته عليه . ذلك وفاتك يتساءل : أيمكن ان يكون نصر حقاً مات ، فسعاد اليوم ارملة ؟

وقد ثقلت رجلا سعاد وهي تدنو من الوالي ، فكأن قدميها الصغيرتين الرشيقتين اصبحتا عبئاً عليها باهظاً . فاهابت بها امها ان تسرع . فخطت وهي تحس الريبة في هـذا الرجل بغريزة الانثى التي تحس ما يجول في خواطر الرجال ، وان لم يصرحوا تصريحاً .

قال الوالي يخاطب الام :

ـ أمتزوجة ابنتك ؟

فعلمت العجوز انه لم يكن يصغي اليهـا حين ذكرت ان ابنتها ارملة . وانفتحت لها وراء هذا السؤال آفاق ، فأجابت :

ـ اما وقد سألت ، ايها الامير ، فهي متزوجة . لكن زوجها ، وهو ابن عمها ، فقير يسير النفع .

فلم تستطع سعاد مواصلة الصبر على هذا الغليان الذي جاش في صدرها . تجعلهـا امهـا ارملة ، اول الامر ، ثم تهين زوجهـا وتحتقره . وتجعلها يتيمة ، فتدفن اباها الشيخ المسكين قبل وفاته . وتستدرجها الى هذا المكان ، فتولم عليها عيون رجلين نهمين وليمة دنيئة . فانفجرت سعاد صارخة بكلام لا يفهم ، وولت هـاربة باتجاه الحي .

فأتبعتها امها قهقهة مرة ، وقالت للوالي الذي ذهل :

ـ اعذر خجلها وخفتها ، يا سيدي .

قال الوالي : اظنها متعلقة بابن عمها .

قالت العجوز : ولكن تعلق الاطفـــال الاغبيـاء . والله لو قست ابن عمها هذا بشسع نعلك لرجحه . سل عنه هـذا الفارس الى جانبك ، فهو من حيّنا ، وهو يعرفه حق المعرفة .

قال الوالي : لا عليك ، يا عجوز ، لقد حدثني فاتك ... لكني رجل لا يحب الحرام . فلو طلقها بعلها لتزوجتها .

وغمز ابن ام الحكم الاعرابية غمزة غامضة . وكان قول الوالي جديراً بان يقع على فاتك وقوع الصـــاعقة ، فان زواج ابن ام الحكم بسعاد يجعلها عليه امنع من عقاب الجو . غير ان تلك الغمزة الغامضة ساقت اليه الطمأنينة . فقد فسّرها فاتك بان الوالي غير جادّ ، وهل يُعقل ان يكون جاداً ؟

وهنا حرّك ابن ام الحكم يده فدسّهـــا في جيبه واخرج ديناراً من ذهب قذف به الاعرابية . ثم جذب لجام جواده فسار الى الخيام .

الفصل الخامس

اقبلت سعاد على الحي مهرولة ، ضيقة الانفاس ، مغسولة الوجه بدموعها . لكنها اجتهدت ان لا يراها احد . وانحازت الى خيمتها حيث قبعت تنتظر عودة نصر اذا امسى المساء . وفكرت في ما عساها تقول له . فعزمت على الافضاء إليه بكل شيء . ان الحب الصحيح شجاع !.. عزمت على ان تستغفره . ثم تطلب اليه ان يغادر الحي في إسراع لان الامور لن تقف في سيرها عند حد .

على ان امها ما لبثت ان تبعتها على الاثر . ودخلت عليها الخيمة تبش في وجهها بشاشة إبليسية تتصنع براءة ملائكية . قالت لها :

— يا ابنتي ، ان الوالي لم يتعرض لك بشيء قبيح او مهين . ولو تريثت فلم تنفجري هذا الانفجار الجنوني ولم تولي هاربة ، لسمعته يقول لك ما يرضيك . لقد اعجب بجمالك . وشرف لك ان يعجب بك رجل تنصاع له الجواري ممن يجلبن الى المدينة ، واجمل النساء ممن ينعمن في مقاصير دمشق . ولقد كان باستطاعته ان يستغل فقرنا وضعفنا ويستعمل سلطانه فينال منك في ساعة ما يشتهيه على اهون سبيل . ومن ذا الذي يمنعك منه ؟ أنصر هذا الرجل الرث ، ام ابوك ، ام انا ؟ لكنه قال دون ان يسأله

سائل : اني اكره الحرام ، فاذا طلقها بعلبـــا تزوجتها حلالاً من الله . ثم قذف لي بما لو رأيته لدهشت . انظري .

وعالجت ام سعاد طرفاً من ثوبها قـد عقدته عقداً محكما . ففكته عن دينار الذهب الذي راح يشع بشعاع اصفر هـــازيء وقح في التحدي . ثم استطردت تقول :

ــ انك لو عقلت ، يا ابنتي ، لكان لك ما شئت من هذا المعدن الثمين : للبست منه السوار في المعصم والعقد في العنق ، ولاكلت في صحاف منه اطيب ما يؤكل ، ولارتديت به الحرير ، ونمت به على السرير الوثير . فكري . ان باب الحظ قـد انفتح لك على مصراعيه ولم تقرعيه . ثم انك لن تخلي بحكم من احكام الناموس . وماذا في ان تطلقي نصراً او يطلقك نصر ؟ وماذا في ان تقتربي بسواه ؟ وجمالك هذا لن يدوم . لكن هـذه النعمة اذا استقبلتها دائبة ، تستطيعين ان تغمري بها أبويك ، وتغمري نصراً اذا شئت . وقد رأيت الوالي ، فهو مـا زال في سن الرجولة القوية ، حسن السمت ، بهي الوجه .

وكانت سعاد تصغي وكأن امها تحز اعصابها وخزاً بابر حادة . فلم تتمالك ان صاحت بها :

ــ اخرجي من خيمتي ، ايتها الافعى ، والا خنقتك ... والتهبت عيناها بعزم لا يقف عند حد حتى القتل . فما اسرع مـا انسحبت العجوز وهي تدمدم : ويحي لو سقيت حليبي ذئبة لكانت أبر بي !..

وأخذت تزحف اشباح المساء وسعاد قلقة ، مثقلة الصدر ، لا تأتي حركة الا ان تمد بنظرها من باب الخيمة لترى هل اطل نصر . فاذا بها تحس اضطراباً وذهاباً وايباباً في الحي على غير المألوف في

سائر الامسية . ثم اذا بفتى يسنده في المشي فتيان عن يمينه وشماله ، جر قدميه فوقف في الساحة يوشك ان ينهار ، واحتشد من حوله الناس . لم تتبين وجهه ، ولكنها سمعت صوته يئن ويستغيث . فخشيت ان يكون هو نصراً قد اصابه شر . فخرجت من الخيمة ودخلت في صفوف المحتشدين . فأبصرت مشهداً عجباً — الفتى وقد رفع قميصه وقوس ظهره الاعجف وطفق يصيح خلال دموعه وشهقاته : انظروا ، انظروا ما فعلوا بي ! وظهره خضيب بخطوط محتقنة حمراء زرقاء يوشك ان يبضّ منها الدم — آثار سياط غليظة لينة مرنة ضربت بها سواعد بطاشة منتقمة .

عرفت سعاد الفتى . هو سلمان ، راع اجير في الحي . هو غير نصر على كل حال . وفهمت ان هذا الضرب في ظهره انما أمر به ابن ام الحكم ونفذه فاتك . وما السبب الا ان سلمان طلب ان يورد قطيعه ماء الغدير الذي يخيم حوله الوالي بجنوده وخيله .

كرهت سعاد من الفتى كثرة نحيبه ، فانه شيء تنبو عنه الرجولة . لكن لينحب سلمان ما شاء . ليس في الموقف كله ما يحمل سعاداً على الطمأنينة . اين نصر ؟ أزف موعد ايابه الى الحي ولم يؤب ... وتصورته ، هو الآخر ، يطلب ان يورد قطيعه ماء الغدير ، فيأمر بأخذه هذا الجلف الوغد فاتك ويضعه تحت سياطه المشعبة اللاسعة . يا للفجيعة ! كيف تصنع ؟

ثم سمعت في كلام الناس حولها : ان من خرجوا بالقطعان هذا اليوم لم يرجع منهم احد بعد ، الا هذا الفتى المنكود سلمان ، رجع دون القطيع . فلعلهم ساقوا القطعان الى ماء بعيد ليوردوها اذ منعهم الوالي ماء الغدير القريب . فاطمأنت شيئاً . ولكن هل

تخلص لها طمأنينة ونصر لم يعد ، وصورة واحدة لا تنفك تراود مخيلتها : صورة ابن عمها تحت سياط فاتك ؟

وما اكثر ما تكلم الناس حولها في تلك الدقائق القليلات التي لاحت لها اطول من دهر . منهم من قال : لا حق لابن ام الحكم ورجاله ان يمنعونا الماء . سنحتج حتى الى الخليفة معاوية . ومنهم من قال : تهلك مواشينا عطشاً قبل ان يبلغ الاحتجاج دمشق ، ثم ما عسى ان تصنع دمشق ؟ خير ان نحتج الى الوالي نفسه . ومنهم من قال : وما جدوى الاحتجاج ؟ يجب ان نجليهم عن الماء عنوة . وهذا النذل فاتك ينسى انه نشء هذا الحي وينغطرس ، فينبغي لنا ان نريه ما قيمته ولو كان جندياً في حرس الامير . ومنهم من قال : هذا عصيان ربما جرّ علينا الخراب . وابن ام الحكم لن يقيم الدهر كله على الغدير . فلا بأس بالصبر اياماً نورد فيها قطعاننا احدى الآبار البعيدة .

وسعاد شاخصة يقع هذا الكلام في سمعها وكأنه طنين غامض مشوّش يأتيها من موضع سحيق . حتى بدأت تفد القطعان ورعاتها . وصحّ تقدير من قدّر انهم ساقوها الى مياه اخرى بعيدة للشرب .

ولمحت سعاد نصراً فانفرجت اساريرها وذهب الثقل عن صدرها . انها لغبطتها ذهلت ، او كادت تذهل ، عما وقع لها في نهارها .

ولكن نصراً قابلها بابتسامة مغتصبة . كان يبدو على وجهه ألمٌ محضٌ أنشب أنيابه في سريرته . أتراه علم شيئاً مما حدث لها في يومها ، ام ان تسييج الوالي على الغدير غمّه هذا الغم ؟ وترددت

سعاد لحظة في ما يبدر منهما اذا هما اصبحا داخل الخيمة . تخاذلت امام العاقبة المحتملة ، ثم آبت الى عزمها ان تنبئه بكل شيء .

فما احتواهما سقف الخيمة حتى انطرحت على صدره فطوقته . وشعر بحرارة دموعهـــا على عنقه . وقبل ان يستطيع كلاماً ، اندفعت تقص عليه في ايجاز . قالت له :

— كنت على حق ، يا نصر . انما قصدت امي ان تعرض جمالي على الوالي . وصدفت الى جانب الوالي ذلك الجلف فاتكاً . بلاء على بلاء . فهربت لا ألوي على شيء . فتبعتني العجوز تحدثني بان الوالي يتزوجني اذا انت طلقتني . وأرتني ديناراً من ذهب اعطاها اياه ، وأظنه دفعة على حساب ... فلنرحل ، يا نصر ، عن هذا الحي . فلنمض . اني اشعر ان المؤامرة بدأت ولم تنته . اشعر ان الفاجعة لا بد ان تدركنا اذا لم نستعجل .

قال لها بصوت ينم عن الثقة بالنفس وهو يربت على كتفيها يحاول تهدئتها :

— فلنسأل الله ان يلطف بنا .

ولبث هنيهة لا يجد ما يزيد على هذه الكلمة . فكر في توبيخ سعاد على مخالفتها رغبته ، وعلى وضعها الشفقة في غير موضعها ، وكيف جاز لها ان تشفق على مثل هذه الام التاجرة وهـــذا الاب الضعيف في ارادته وفطنته . الا انـه علم ان سعاداً في حاجة الى الرحمة لا الى التوبيخ . وعلم ان هذا التوبيخ مهما يكن حقـاً فلن يجدي فتيلاً . فصرف تيار نقمته الى هـــذه العجوز الملعونة — امرأة عمه . أيقتلها ؟ أيقتل الوالي ؟ ثم ماذا ؟ حيـــاة مشردة او تسيير على خشبة ؟ وليس الانتقـــال عن هذا الحي

الى سواه بأجدى . فاذا أصر الوالي ، لم يعجزه ان يطلبه في الاحياء كلها . ونصر اليوم يرعى القطيع لاحد موسري الحي ، وهو موفق في عمله ، ولن ينقضي العام او العامان حتى يصبح مالك قطيع صغير ، فيستقل بنفسه ويستغني عن خدمة الناس . فكيف يغادر الحي ويترك جهوده كلها كأن لم تكن ؟

وأقام صامتاً يتخبط ذهنه في هذه الشبكة المعقدة من الحيرة ، وسعاد ما تنفك تطوقه . وقد اطمأنت الى قربه اطمئناناً لذيذاً وكفت دموعها عن الانحدار . فقبلها قبلة رقيقة في جبينها ، واقصاها عنه برفق وهو يقول :

ـ لا عليك . سنرى ما نصنع ... ضعي العشاء .

وأكلا لقيمات في غير ما شهوة الى الاكل .

والناس في خارج ما انفكوا محتشدين تتأدى اصداء احاديثهم في هدأة الليل الى داخل الخيمة ، فترد نصراً الى هذا الحادث العام الذي امسى شغل اهل الحي لا شغل لهم إلاه . فقد حرم ابن ام الحكم ورود ماء الغدير ، وقد امر بجلد احد الرعيان جلداً وحشياً نفذه هذا النذل فانك ... سألته سعاد وكأنما تقرأ افكاره وهي تدفع في حلقها غصباً بآخر لقمة :

ـ هل سمعت ، يا نصر ، بما اصاب اليوم هذا الراعي المسكين سلمان ؟

قال لها بصوت جاف :

ـ نعم سمعت وكنت شاهداً . لقد تقدم في طليعتنا عند غروب الشمس يطلب ورود الماء بقطيعه ، فتصدى له فانك وهو يقوم على حراسة الخيم ، فصاح به : لا ماء ! عد من حيث اتيت . ولوّح

في وجهه بسوطه المشعّب الاطراف . قال سلمان : ولكن الغدير لاهل هذا الحي ، ولا بد للقطعان من شرب . انتهره فاتك وصوته يزداد ارتفاعاً وغلظة : انا امر الوالي ان لا يرد احد هذا الغدير قبل ان تنتهي ايام صيده في هذه الناحية . انكم اذا وردتموه بمواشيكم فلن تصدروا عنه الا وقد جوي الماء . ويجب ان يبقى الماء صافياً نظيفاً لمولانا الوالي . قال سلمان : اذاً ، تهلك مواشينا . فالماء الآخر شاسع عنا ، اذا سقنا اليه قطعاننا رجعت عطشى لطول المسافة . ولا يمكن ان يكون الوالي أمرَ بهذا الامر . وانت ، يا فاتك ، من ابناء حيّنا ، فهل يليق ان نأخذنا بهذه المعاملة الصلفة ؟ قال له فاتك وفي صوته نبرة من نباح الكلب العضوض : انتظر يا هذا حتى اريك ما امر به الوالي اذا عاند احدكم او اعجبته فصاحته في الجدال . انتظر حتى اريك ما تكون معاملتي الصلفة . ونادى بجنديين ، فأسرعا بسحنة متجهّمة ، فبطحا سلمان ارضاً ورفعا القميص عن ظهره البارز الاضلاع . فانشأ يبكي ويصيح حين فهم ما يراد به . وتقدم فاتك فجعل يرفع سوطه على مدى ما تمتد يمينه ، ثم يردّ السوط فيهوي صافراً فاحّاً فجبح الحيّة على ظهر المسكين وهو يستنجد بنا ويستغيث . لكن اخذنا الوجوم جميعاً للمفاجأة . فلم نرَ ما نصنعه الا ان نضم قطيعه الى قطعاننا ونقصد الماء الآخر البعيد . وقد لبثت الوقت كله افكر في هذا الوجوم الذي جثم علينا وهذا الموقف المخذول الذي وقفناه . وكان رأي رفاقي من رأيي . على اننا اتفقنا ان ننتظر قرار اهل الحي . وسأخرج الساعة الى الناس فأرى ما صحّت عليه عزائمهم .

ونهض نصر واتجه الى باب الخيمة . فنهضت في اثره سعـــاد وامسكت بكمّ عباءته تتوسل اليه ان لا يعرّض نفسه .

قال لها وقد جمدت عيناه على عينيها الضارعتين :

ـــ سنرى . نامي ، يا حبيبـتي ... وقبلها في الفم قبلة خفيفة . ومضى . فتبعه صدى ناحب يدعوه : توقّ ، يا نصر .

وطال حديث اهل الحي واخذهم وردّهم في القضية . واقترح الشيوخ اصحاب القطعان الكبيرة تأجيل القرار ، وانصرفوا الى النوم .

وبقي نصر ونفر من الفتيـان قرروا ان لا ينبغي لهم ان يبيتوا ليلتهم على ضيم .

ومشى نصر الى خيمته مطمئناً الى القرار . شيء واحد ظل يقلقه . أتكون سعاد مفيقة ؟ انها قد تثني عزمه ، فاذا اقدم على العمل كان اقدامه بقلب ثقيل . ودخل الخيمة على رؤوس اصابعه كأنه شبح سارق يتسلل . فسمع انفاساً تتصاعد ناعمة رقيقة . سعاد تنام !.. ارادت ان تبقى مفتوحة العينين ، ولكن العناء وزحف الليل غلباها على ارادتها .

ـــ نامي ، نامي . سأعود . قال لها بهمس خفيض رقيق كأنفاسها .

ومضى وئيداً الى موضع قوسه ونشابه ، تجحظ عيناه متلمستين في الظلمة . وتنـاول القوس والنشاب ، ثم تمهّل هنيهة يتأمل هذا المحيّا الوادع ، محيا زوجته ، في هدوء الرقاد . واشتهى ان يطبع على جبينها قبلة يتزودها زاداً . فمن يعلم ما يحدث ؟ لكنه بدل ان يفعل ، حوّل وجهه نحو باب الخيمة ولحق برفاقه .

وقال سلمان الذي أكلت السيـــاط ظهره في ذلك اليوم :

أعازمون انتم ؟

اجابوه : وهـل ترتاب ؟ ان في سؤالك نبرة من تردد .

قال وهو يوشك ان يجهش بالبكاء : إنني مهدود الجسم اليوم . لو انتظرنا ما يقرره الشيوخ في غد .

قال نصر : كان يجب ان يزيدك ما لقيت اليوم قوة . امكث ولا تطلب الاعذار .

قال سلمان بصوت اشبه بالمواء : اعذروني . اكاد ، ايها الرفاق ، اتمدد ارضاً فأدفن وجهي في الرمل خجلاً منكم .

اجابه نصر : كلا ! لا تفعل هذا بوجهك . لكن اغرب بـــه عنـا .

وانفتل ماضياً في طريقه . وجدّ في اثره سائر رفاقه .

كل شيء مجلببٌ بالصمت في هـــذا الحي المكتوم في جوف الصحراء . ما من نأمه في كل ذلك المدى الفسيح من الدنيا حولهم وامامهم . السماء ايضاً خرساء بكماء . نجوم وكواكب محايدة في عزلتها الرفيعة القصية . لا صلة لها بالعالم السفلي إلا هـــذه الاشعة المبهوتة التي لا تعطي خبراً ولا تأخذ .

حتى هذه الحفنة من الفتيان تمشي موغلة في الصمت ، ينسحق الرمل تحت اقدامها في شبه صوت متوجع ابح مقطوع الصدى . وتنبض قلوبها منفعلة ولكن في اتزان ، متحدة كجوقة تعزف الالحان ولكن في كتمان عميق الغور .

واشرف الفتيان على مخيم ابن ام الحكم . هنا ايضاً سكون ناشر جناحيه . وهنا لوحة مبهمة على البعد لا تبين تفاصيلها . وجحظ الفتيان جميعاً باعينهم يستوضحون اللوحة . ورفع نصر عينيـه الى

الاعالي كأنه يسأل النجوم ان تقوّي حبال نورها على الارض . ثم انبطح على اضلاع صدره يزحف الى اقرب فأقرب مـــن المخيم . وفعل فعله الفتيان .

اكتظّ رأسه بالافكار ... هـذه قوسه ومعها النشاب . تذكر انه صرع بها ذئباً . ووعد يوماً بان يفلق بها قلب فاتك . فهل ما زال فاتك على حراسة المخيم ؟ وأحس في صدره بغبطة وحشية . ولو رأى عينيه ساعتئذ في مرآة لهاله كيف تتوهجان في الظلام . لكن ربما نبحت كلبة فأفسدت كل شيء . يجب ان يكتم حـــتى انفاسه المتسارعة .

ها هي اللوحة ، لوحة المخيم ، تصبح لديـه اكثر وضوحاً . وعلى باب المخيم شبح يذهب ويجيء وظله ينسحب مديداً ادكن اللون على الرمل المتشح بالضوء . ترى يكون هـذا الشبح فاتكاً هو إياه ؟ ان عدل الاقدار يكون خرافة ان كان لحم هذا الشبح ودمه رجلاً غير فاتك .

ورفع نصر صدره شيئاً عن الارض . وركب السهم في قوسه وركزها على كتفه . ثم أقفل عيناً ، وضاقت عينه الاخرى في تصويبة محكمة . وشد الوتر يختبر متانته . إنه صامد وثيق . فشده هذه المرة بجماع ما في ساعديه مـــن عزم وكانت القوس نصف دائرة فتحولت بين يديه ، بقوة الشد ، الى بيضة عظيمة ... لحظة ... ترى ، هل تمضي هذه النشابة برأسها المحدد المسنون الى حيث يرسلها — الى تلك النقطة ، نقطة القلب مـــن ذلك الشبح ؟ لا ريب ! لا ريب ! يستحيل ان تخونه يده وعينه في الرماية اليوم .

وانفلتت الاصابع التي كانت منضمة على الوتر واسفل النشابة

انضمام الكلابة من فولاذ . وانطلق السهم يفحّ في الهواء . وفي تلك الدقيقة التي حنّت القوس واختلجت كمن تحرر من جهد جهيد ، هوى الشبح يخبط الارض بثقل بدن هامد لم تصعد منـــه الا صرخة توجع بترت بتراً بفاجأة الموت .

صرف نصر وجهه عن المخيم ودار ، مبطوحاً ارضاً ، صوب الحي . واقتدى به رفاقه . ثم طفقوا يدبون جميعاً مسرعين على الايدي والركب . خيّل لهم ان كلاباً انفجرت بنباح ، وان مخيم الوالي بات يعج بالحركة ، وان الخيل تحفر الرمل بحوافرهـا خباً في اثرهم . لكن كلاّ . يا لمبالغات الوهم ! فما انفكت السكينة رابضة مع الليل ربوضها الاول .

ومضى كل من الفتيان لسبيله ساعة بلغوا الحي بعد ان تمهلوا ريثما اقسموا ان تكون صدورهم قبراً عميقاً للسر الخطير .

وقالت سعاد لنصر اذ دخل الخيمة يبوطء على رؤوس اصابعه تكاد لا تحسه الارض :

ـ اين كنت حتى الساعة ؟

قال لها ، واسرع ذهنـه الى حيـلة فمضى على الاثر في ظلام الخيمة لوضع قوسه ونشابه في الزاوية :

ـ ألم تنامي بعد ؟

أجابته : نمت ثم أفقت فتلمستك الى جانبي فلم اجدك .

قال : اطلنا السهر ونحن في حديث ابن ام الحكم ومـا يجب علينا ان نفعل .

ودنا فاضطجع الى جانبها ومسح على جبينها بيد رقيقـة ، ثم اغمض عينيه متناوماً .

قالت له وقد ادارت رأسها فحطت عينيها على وجهه :

ـ أجل ، نم يانصر . اني المح من خلال سجف الظلام عنـاء شديداً منطبعاً في قسماتك .

... مع الصباح الباكر ، هجم على الحي نفر من فرسان ابن ام الحكم مرغين مزبدين شاتمين تقدح عيونهم الشرر . لقـد وجـد الحارس ، الذي كان يخفر مخيم الوالي ليـــلا ، مغلوق القلب بسهم شديد . والقرائن توقع الشبهة على اهل هذا الحي . فأمس اتفق للحارس القتيل ان جلد راعياً من رعاة الحي لانه اصر ـ مخالفة لامر الوالي ـ ان يورد قطيعه ماء الغدير الذي ضرب حوله المخيم . وفي الطريق بين المخيم والحي آثار ارجـل لم يمض عليها وقت ، وآثار دبيب وابدان سحبت نفسها على الرمل سحباً .

وقـد طاف الفرسان بالحي شارعين سيوفهم ، واهـــل الحي منزوون جميعاً صامتون على هلع وغيظ ـ الا الصبية الصغار لبثوا في طراوة الصباح يتواثبون فرحـــاً ويغردون ضحكاً . اعجبتهم البسة الفرسان وسيوفهم وخيولهم ، حـــتى اذا ادركوا الحقيقة جمـــدت الحركة في مفاصلهم واختنقت ضحكاتهم وقسا البريق في نظراتهم . ثم حـــادوا يجمعون الحجارة بتلك البساطة الطفولية التي لا تهوّل على صاحبها بقوة عدو .

وألحّ الفرسان في طلب هذا الفتى الزري الذي جلده فـاتك امس . وانهم ليتذكرون وجهه جلياً فقد شهدوه . ولابـــد ان تكون آثار السياط ما زالت بادية في لحمه . فلم يصعب عليهم ان يجدوه . ذلـــك ان الخوف سمّر سلمان في وكره تسميراً فوقـع فريسة سهلة رخيصة . وساقوه سوق غنمة ذليلة ، يتعدون بـــه

اهل الحي ذلك التحدي الفاجر الذي يجيده « عملاء » السلطة الغاشمة حين لا يقاومهم الشعب . فكأن هؤلاء « العملاء » الذين يقومون بدور العبد الذل ، لدى السلطة الغاشمة ، يرون لذة وترضية في ان يقوموا بدور السيد المتغطرس امام الشعب المسكين .

على ان فرسان ابن أم الحكم لم يخرجوا من هذه الزيارة يومئذ الا برداع لائق . فان صبية الحي زودوهم بكل ما استطاعوا ان يجمعوا من حجارة وبعر جمال ، وبكل ما استطاعوا ان يحفظوا من قاموس الشتائم .

وفُهم في الحي ان فاتكاً قد لقي مصرعه . فلم يجد احد سبباً للحزن عليه سوى اهله . بلى ، تظاهر بالحزن اولئك الذين خافوا انتقام الوالي من الحي كله ، وتمنوا ان يفتدى الامر كله بالراعي المسكين .

اما نصر فارتدى وجهه قناعاً حجرياً جامداً ساعة تفرست فيه سعاد تفرساً ذا مغزى وهي تسأله :

ـ هل كتمت عني شيئاً في الليلة البارحة ، يا نصر ؟

فأجابها في غير اكتراث :

ـ اختصرت لك الحديث لانني كنت تعباً جداً . والآن ، يجب ان اخرج بالقطيع .

فسكتت سعاد لا تحير . ثم انهمكت في بعض شؤون « البيت » . وفطن نصر الى امر فاغتنم غفلة سعاد ، فاخذ بقية سهامه ، فدسها تحت عباءته ليدفنها في موضع خفي بعيد عن العيون التي يمكن ان تقارن بينها وبين هذا السهم الذي صرع

به فاتك . ثم ساق قطيعه الى المرعى على مألوف عادته .

وفي المرعى فكر نصر في حاله . ان ثقته بأصحابه لا تحتمل الوهن او الضعف . لكن لم يكن سلمان ، هذا الفتى الرخو الفقار ، في الحسبان . لقد جره جنود الوالي وسيلصقون به التهمة ويعذبونه ويهددونه بالقتل ، فلا يترك عندئذ شيئاً يعلمه الا قاله . وهو يعلم بخروجهم في الليلة البـــارحة الى المخيم ، ويعلم بقصدهم . يا للورطة الخبيثة ! فما جال في خلده ان القضية ستدور هذا المدار .

لكن فليكن . ما العمل ؟ سوف يترقب . حتى اذا شمّ الخطر نجا ، ومعه سعاد . وفي الصحراء متسع عريض . وفيها كثير اشباهه من المتمردين المشردين ، او جماعة الخوارج ، يعيشون مفترشي التراب ، ملتحفي السماء ، معانقي السيوف .

الفصل السادس

كانت ام سعـــاد في ذلك اليوم قد بكّرت الى مخيم الوالي بكوراً عظيماً ، بل ذهبت تحت ستر الهزيع الاخير من الليل ، غير عارفة بشيء مما حدث او يحـدث ، تريد ان تلقى الوالي قبل ان ينطلق الى الصيد في مبزغ الفجر .

فلما اشرفت على الخيام شاهدت في الغَلَس شبح حارس يذرع الارض جيئة وذهاباً في خطوات عصبيـة . فتمنت لو يكون هو فاتكاً فيسهّل لها امرها . لكن لم يلبث ان راعها نفر من الفرسان يخرجون من المخيم فيلكزون جيـــادهم مسرعين نحو الحي الذي اقبلت منه . فأوجست خيفة وتنحّت عن طريقهم الى مخبأ توارت فيه حتى عبروا تتبعهم غمامة من غبار . ثم عادت تدلف نحو المخيم . ففطن لها الحارس . فوقف ينتظر دنوّ هذه العجوز الاعرابيـــة الغريبة التي تقصد خيـام الوالي في مثل هذه الساعة بعـــد الذي حدث في الليلة الفائتة .

قالت له بعد ان دنت فألقت عليه تحية الصباح : تلطّف ، يا جندي، فأجبني هل أفاق الامير ؟

فاقتحمها الحارس بنظرة فيها غلظة وجفاء . ثم قال لها :

ـ ما اوقحكم اهل هذا الحي . يشرّفكم الامير بنصب مخيمه في جواركم فتغتالون حارس المخيم ليلاً ، ثم تفد عجائزكم مع الصباح

الباكر يطلبن الصدقات ؟ وإلا فماذا يطلبن ؟ أليس للامير ان ينام حتى تأتيه في مثل هذه الساعة وفي مثل هذا اليوم الذي جعلتموه مشؤوماً ؟ انصرفي !

اجابته بعد ان وقف ذهنها في تأمل هذه الانباء التي كشف لها عنها :

– كلا ! لست طالبة صدقة كما تظن . ولا علم لي بما حدث في مخيمكم . ولكن لي شغلاً عند سيدي الوالي .

ثم تشجعت فقالت له رافعة صوتها كالمنتهرة : امضِ فقل لسيدنا الامير – الاعرابية التي لقيتك هي وابنتها نهار امس واقفة بالباب تلتمس مقابلتك لشأن يهمك .

فتردد الحارس لحظة . ربما كان لهذه العجوز نبأ تفضي به الى الوالي – نبأ يتصل بحادثة الليلة الماضية . وزادت ام سعاد في إلحاحها عليه . وعدته بالمكافأة من الوالي ، وهددته بالعقوبة اذا هو ردها . فما لبث ان دار على عقبيه فمضى يسعى في تسهيل امرها . ثم عاد مسرعاً فقال لها : ادخلي يا خالة . وفي صوته نبرة تهيّب . لقد وجد ابن ام الحكم مستيقظاً . فحين سمع الامير بخبر العجوز امره ان يأتي بها دونما ابطاء . ان مصرع حارس من حراسه شيء لا يحول دون الهموم الاخرى ...

وحيّت ام سعاد ابن ام الحكم تحية تعظيم بليغة ، فيما الحارس ينسحب .

فقال لها ابن ام الحكم وبطنه مرتج وخداه منتفخان محتقنان : إنكم اهل هذا الحي خبثاء لا ترعون جواراً ولا قربى . ما كدت اضرب خيامي على غديركم هذا حتى وجدت فاتكاً – وهو واحد

من حراسي وابن من ابناء حيكم – مفلوق القلب بسهم عند باب المخيم .

قالت العجوز كالتي فوجئت : وهل صُرع فاتك ؟ رحمة الله عليه . ثم خشيت ان يجدّ الوالي في حزنه على الحارس الصريع فيحول ذلك دون دخولها فوراً في موضوعها ، فسعت في تلطيف وقع الحادثة واستأنفت تقول :

– لكن هل تدري ، يا سيدي الامير ، ان فاتكاً هذا كان يطمع في سعاد ؟ لقد ذهب في سبيله فليذهب .

قال الوالي : أوحق ما تقولين ؟ وطافت بذهنه ، حين ذُكرت سعاد ، صورة المرأة الصبية الممتلئة قوة وجمالاً وفتنة وإغراء ، فتابع كلامه للعجوز : حدثيني هل وفقت في المهمة ؟

اجابته : أوفق ان شاء الله وشاء الامير ان يساعدني في بعض الامر .

– ماذا ؟ ألا ترضى بنتك بطلاق صعلوك لتتزوج والياً ؟ ألا يرضى صعلوك بطلاق امرأته ليتزوجها والٍ ؟ لعلك لم تطمعيها بما سأبذل لهما من مال ؟

– ولكن ليست هذه بالسبيل التي تنجع . بقيَ ان تستعمل سلطانك ، يا مولاي ، فتأخذ بالشدة حيث لم ينفع اللين .

– ويحك ! ألم تفهمي اني رجل لا يحب الحرام ؟

– معاذ الله ان ادعوك ، يا سيدي ، الى حرام والبنت بنتي .

وخفضت العجوز صوتها الى مثل الهمس وهي تقول : لكني ادلك على طريق ... ان زوج سعاد يرعى القطيع لبعض موسري الحي عندنا . يخرج بالقطيع كل يوم ، فلا بد ان يسرح به اليوم

في هذه النواحي او في قريب منها .

قال الوالي : ثم ماذا ؟

اجابته : فاسهل شيء ، اذن ، ان يلقاه رجالك فيركبوا عليه ذنباً تأخذه به فتسجنه . واين لسعاد عندئذ من يقوم بنفقتها ؟ فلا يكون لها بد من ان ترضى بطلاقه خوف الهلاك جوعاً ، او يخضع هو لطلاقها اذا وعدته باطلاقه من السجن او اغريته باغراء آخر . فان عاند هو او عاندت هي ، جاز لي ان اتقدم اليك بدعوى الفصل بينهما حرصاً على حياة ابنتي ان تهلك جوعاً بانتظار زوج اقترف ذنباً ، فسجنه الوالي فعجز عن اداء النفقة لامرأته .

فأطرق ابن ام الحكم هنيهة ، يمشط لحيته باصابعه ويفكر ، ثم قال لها كالمداعب :

— لعنك الله من خبيثة ماكرة !.. ما اسم صهرك ؟

— نصر .

— انصرفي الآن .

فتحركت في تثاقل . كانت تريد ان تعلم هل وافق الوالي على ما رسمت له من خطة . غير انه لم يزدها حرفاً على ما قال . فتشاءمت . ثم تفاءلت لما قذفها بدينار من ذهب اتبعه ابتسامة ذات مغزى .

وفيما العجوز تدير ظهرها منصرفة قابضة باصابعها الجافة الخشبية على الدينار ، اذا بالحارس يدخل على ابن ام الحكم معلناً له قدوم وفد من كبراء بني عذرة يريد مقابلته . فاغتنمت ام سعاد فرصة خرجت فيها مستعجلة لئلا يذكرها الحارس بما وعدته به من مكافأة !

ثم كان المساء، فطلع على الحي فارسان يسوقان قطيعاً من الماشية ثقيل الخطى مسترخي الآذان، والفارسان يعتزان بأنهما من رجال الوالي، وان الوالي اعتقل ذلك اليوم بدوياً اسمه نصر كان يرعى هذا القطيع، لانه نفر الطرائد مراراً وعكر الصيد على الامير. واضاف الفارسان: ثم قد كلفنا الامير ان ننادي بأهل هذا الحي انه سينحي المخيم عن غديرهم غداً، فتستطيع قطعانهم ان ترد الماء. لكنه لم يفعل ذلك الا كرماً منه وتطييباً لخواطر الكبراء الذين زاروه ملتمسين. فلا قسيكم تخيفه ولا نشابه ان كان منكم مجنون يفكر في استعمالها. ولقد استوثق الامير ان مصرع فاتك انما كان بنزوة من شيطان ذلك الراعي القصير العمر الذي اراد ان يثأر للسياط التي أكلت ظهره ساعة عاند في ورود الماء. وسيلقي الفتى جزاءه قتلاً بقتل. هذا مصير المعتدي. أعذر من أنذر!

وقفل الفارسان بعد ان تركا القطيع في الحي يتسلمه صاحبه.

وبلغ سعاداً نبأ اعتقال نصر وسببه. عرفت ذلك من صبي اقبل واجماً على خيمتها يسوق ما كان لنصر من غنيمات ذابلة العيون كئيبة المنظر كأنما شعرت بما وقع لصاحبها. فصعقت سعاد لا تدري كيف تستقبل المصاب... حقاً ان لها بعض عزاء في ان التهمة ليست خطيرة بقدر ما كان يُحتمل ان تكون في مثل هذه الملابسات. لكن نصراً قد بات، مع ذلك، سجينا، لا تعلم مدى ما يحل به من اضطهاد. فكيف يُسجن نصر؟ وما تفعل هي؟ وعلامَ يُسجن نصر؟ فهل حق انه نفر الطرائد؟ وهمّت بالبكاء مضعضعة مشلولة منهارة.

لكن لامر ما ، اومض بغتة في ذهنها ان امها يستحيل ان تكون بريئة من هذا الفخ الذي دفع اليه ابن عمها . فتمالكت بقوة عاصفة من غضب ثارت فجأة في صدرها ، ولم تسل لها دمعة .

حدثتها نفسها بان تهاجم امها فتمزقها باظفارها واسنانها ، واندفعت الى خيمة والديها كأنها محمومة في اعصار . فلم تجد الا اباها الشيخ مستغرقاً في ذهول وشحوب ، ترشح عيناه العمشاوان . اجابها لما صرخت به تسأله عن امها : والله لا ادري اين هي الشريرة ؟ وانفجرت دموعه حين علقت عيناه بعيني ابنته المضطرمتين . فلم تملك سعاد ان تجيبه بالبكاء والشهيق . كانت على وشك ان تختنق لولا ما ارسلت من هذه الدموع الغزار الحرار .

ثم امسكت نفسها لعلمها ان ذلك لا يجدي . ولم تقل لابيها شيئاً ، لانها رأت سدى ان تستشيره بعد الذي ثبت لها من عجزه عن الرأي .

... ذهب بها التفكير الى الشيخ سالم ، وهو الذي يتولى نصر ورعاية قطعانه اكثر الايام . شيخ طيب القلب نافذ الكلمة ، يحب نصراً على ما تسمع . فاذا استعانت به فقد يغيثها ، وقد يلتمس لنصر منفذ خلاص . ولم تكن سعاد تعرف هذا الشيخ الوقور الا من بعد ، وبينها وبينه مسافات في العمر . لكنها استجمعت شجاعة فقامت تطلب منزله . وأذن لها بالدخول الى خيمته . فلما علم الشيخ سالم انها امرأة نصر بشّ بها واظهر لها الرأفة . فارتبكت كيف تبدأ الكلام . ثم امسكت بخيط الحديث من اوله ، فراحت تقص على الشيخ قصتها كيف تزوجت نصراً على حب وعيام ، وامها تريد ان تستغل جمالها فتزوجها غنياً يدفع

لها مهراً عظيماً ، ثم كيف استدرجتها الى لقاء الوالي الذي رغب في زواجهـــا اذا طلقها نصر ، ثم كيف انتهى نصر الى السجن بمكيدة هي لا ريب من صنع امها وموافقة الوالي .

والشيخ يصغي بعطف الى قصة عرفها وسمعها من قبل مراراً ، حتى جاء ذكر الوالي على شفتي هذه الصبية الجميلة العاثرة الحظ . فبدا على وجهه امتقاع ، وقال لها وقد قبض على لحيتـه وطأطأ جبهته العريضة والعقدة بين حاجبيه :

ــ يا هذه ، انك تتهمين الوالي بأمر لا يليق ، ومـا اراك على حق . فتصر على ما سمعنا قد نفّر طرائد الصيد من طريق الوالي . ومهما يكن من شيء فاني لا اقبل الدخول في شأن اعارض فيه ارادة اميرنا ، فامضي اليه واسترحميه .

فأحست سعاد بريح جافة لاهبة تلفحها لفحـــاً ، فتيبس نبت الرجاء الذي كان قد شرع ينبت في صدرها . ونهضت متثاقلة مسحوقة النفس . وقبل ان تنصرف ، فطنت الى شيء فقالت له :

ــ لو اشتريت مني غنمات نصر فضممتها الى قطعانك ، يا شيخ . فأنا في حاجة الى ما انفق .

فاجابها : حباً وكرامة ... ونهض في بطء وأناة ، فاخرج لها بعض دراهم ، ثم اردف يقول : جيئي بالغنمات او احفظيها لا فرق . ولن اتركك للجوع يا بنيّة .

حقاً كان الشيخ سالم صاحب مروءة . لكن كانت تقف به مروءته كلما رأى خطر الاصطدام بالسلطان . فشكرت له سعاد صنيعـه ، ووعدته بتعجيل الغنمات اليـه . وانطلقت كاسفة البال ، منكسرة النفس .

ولم تدر تلك الليلة ، وهي تتقلب في خيمتها ، هل قضت ليلة واحدة ام زحف عليها دهر بكامله .

وخالت الصباح سيحمل لها فرَجاً او يفتح لها سبيلاً الى الفرج ! لكنها سرعان ما تبيّنت انها كانت ضحية وَهم دفعتها اليه السذاجة فأسفر عن خيبة مرة .

الفصل السابع

كان نصر ، ساعة طلع عليه نفر من فرسان الوالي ، واقفاً بمفرده ينظر في الآفاق حوله ويجتهد في ان يتبيّن الساعة التي بلغها النهار بعد ان اصفرّت اشعة الشمس ومسحت الارض مسحة ذهبية .

وبرغم انه بوغت باقتراب الجنود على الخيل ، وازدحمت في رأسه الافكار المثيرة ، وتمنى لو لم يدفن قوسه ونشابه ، فان وجوه الفرسان لم تنذره بالشر ، وعلى الاخص بعد ان حيّاه قائدهم متلطّفاً وقال له :

ـ ارى من طول نظرك الى الآفاق انك تترقب شيئاً ، يا اعرابي .

اجابه نصر :

ـ كلا ، لست أترقب شيئا ، ولكني اتبيّن كم بقي من عمر النهار . فلا بد من ورود الماء البعيد بعد ان منعتمونا ماءنا الذي خيمتم عليه . ثم لا بد من العودة الى الحي قبل اشتداد الظلام ، والا شُغل بال اهلنا .

قال له القائد مستمراً في تلطّفه لخطة كان يرتئيها في سياسة هؤلاء الاعراب النزقين حتى يتمكن منهم :

ـ ولكن سمعنا ان مولانا الوالي عاد اليوم فعزم على ان

يأذن لكم بورود هذا الغدير القريب . فهيّا بقطيعك سر معنا .

فما اعجبت نصراً هذه الخدمة الفورية التي تطوّع لها هذا القائد ومن معه من فرسان ابن ام الحكم . فقال وهو ينظر في وجه القائد نظرة مستريب :

— بشرتني بخير . على اني أوثر ان يبقى قطيعي في مرعاه يقضم العشب ، فما زالت في النهار بقية .

ولكن الفرسان انتشروا محيطين بالقطيع ، فجمعوه . وقال القائد لنصر بنبرة لا تلطّف فيها هذه المرة :

— سق قطيعك ، يا اعرابي ، وامشِ به امامنا الى المخيم .

ففهم نصر انه غير مخيّر في الذهاب والبقـــاء . واحب على الفور ان يعرف سبب هذا الاكراه ، فيعلم اي موقف هـذا الذي يواجهه ، واي مصير هذا الذي يتوقعه . فقال محتداً :

— ولكن علامَ تكرهونني على المضيّ بقطيعي الى الغدير ؟ لعلي لا اريد .

قال له القائد :

— وكيف تريد ، وانت ادرى بما فعلت ؟

واذن ، فهذا الوغد سلمان قد خان السر فاسلمهم جميعاً الى انتقام ابن ام الحكم . كذلك فكر نصر ، وعزم على ان يحمل التبعة التي تقع عليه في غير ما طلب او انتظار للرأفة .

وهنا ارتفع عليه صوت القائد يقول : اراك سكت كأنك تقر بذنبك .

— واي ذنب ؟ لا حصر للذنوب التي يمكن ان يرتكبها امرؤ حين يقنط من عدالة الحاكمين .

– ولذلك لبثت اليوم نهارك تنفر طرائد الصيد من طريق مولانا الوالي .

وعجل القائد على جواده حتى حاذى نصراً فنـاله بسوط من كتفه الى خصره المقابل . فلم يحس بألم الضربة وان هو سمع صدى صفقة السوط كأنها آتية من بعيد . لقد كان مغتبطاً بأن التهمة التي وجهت اليه لم تكن تلك التي يخشاها .

فصاح به القائد مغضباً :

– ويلك تتجاهل سوطي ذهاباً بنفسك مع الكبرياء . رويدك حتى نصل الى المخيم فترى كيف أنضج جلدك .

أجابه نصر :

– وعلامَ غضبك؟ اني اجتهد ان اتذكر في اي منـام نفرت طرائد الوالي .

قال له القائد مرعداً :

– وتتهكم ، يا أعرابي السوء .

فزمّ نصر شفتيه ما ينبس . وفكر في سعاد ساعة يأتيها نبأ هذا البلاء الذي حل به ، فتألم لهـا باكثر ممـا تألم لنفسه ، وعصر قلبه حنينٌ مرهق ...

ولقد بر القائد بوعيده ساعة الوصول الى المخيم . امر بأن تشد يدا نصر ورجلاه ، ويبطح على وجهه أرضاً ويرفع عنه القميص . ثم راح ينضج جلده بالسوط في يده ، وهو لا ينتظر شيئـاً كأن يشنف اذنيه بالاصغاء الى صوت هـذا الاعرابي يتوجع ويسترحم ويبكي وينهار . ولم تكن بين نصر والقائد عداوة سلفت فيتشفى به مثل هذا التشفي . ولكنه اعتبر اهانة له ان لا يمرء الرجال بين

يديه ، تحت سوطه ، كالقطط . فماذا يقول عنه الجنود اذا هو لم يستطع ، بكل ضربة من سوطه ، ان ينتزع صرخة ألم ممزق من أعرابي ؟ بل ماذا يقول عنه ابن ام الحكم وقد امره ان يرهب هذا الاعرابي ويكسر نفسه كسراً ؟

على ان نصراً آثر ان ينشب اسنانه في التراب وبعض الارض فلا يصيح . وامسك ببدنه ان يتلوى تحت سوط هذا الرجل الذي بات ، لشدة الغيظ وبذل الجهد ، يتصبب عرقاً ويلهث كأنه هو المضروب لا الضارب .

واخيراً ركل القائد نصراً برجله ، ورمى بالسوط بعيداً كمن يئس من مستحيل . وقال لبعض الجنود وهو يفتل شاربيه بحركة عصبية كأنه ينتفها :

ـ انقلوا هذا الكلب الذي جلده جلد تمساح الى خيمة فاسجنوه فيها حتى يرى مولانا الوالي رأيه فيه .

فدنا الجنود من نصر فرفعوه . فجعل يتف من فمه التراب . ولم ينطق بكلمة الا حين اراد جندي ان يرد قميصه على ظهره ، فقال له :

ـ بل اتركني مكشوف الظهر ، لا يعلق بقميصي ما لا بد ان يكون نزّ من دمي .

فأطاعه الجندي وهو ممتلىء اعجاباً بتجلد هذا الفتى وكبريائه على الألم .

لكن لا شك ان ما عصف في نفس نصر من الالم المعنوي خفف عنه نهشة الالم البدني .

وتشاور الجنود فيما بينهم سراً ، بعد ان حملوا نصراً الى خيمة

سجنه فألقوه ارضاً ، مبطوحاً عـــلى وجهه . ثم خف احدهم فجاء بدهن دهنوا به ظهر نصر ، فأطفأوا عنه بعض ما اخذ يحسه من حريق اذ بردت عليه آثار السياط .

وقـال له احـــدهم حين رأى سحنته تنقلص بنوبات المضض الشديد :

ـ لا عليك ، فانك لن تلبث بضع ساعات حتى تستريح عـلى هذا الدهن ، فكأن الذي كان لم يكن .

وبقي نصر مبطوحاً عـــلى وجهه ارضـاً ، في الخيمة ، يتململ منفرداً ويتعذب ، لا بما ناله من بلاء بل بعجزه ان يركز افكاره على قرار . فقد اجتـــاح ذهنه تشويش غريب . فما معنى ان يأخـــذه جنود الوالي هذا الاخذ العنيف بتهمة ملفقة كل التلفيق ، بعيدة جـــداً عن التهمة التي يخشاهـــا وهي اعظم خطراً . ألا إن في الامر للغزاً غامضاً ، وربما كان مقدمة لشر يكون اثقل عليه من الشر الذي يصيبه لو انكشف انه صارع فاتك ... ترى ، أما من يد في هذا كله للعجوز ام سعاد ولطمع الوالي في سعاد ؟

وفيما يتخبط ذهنه تخبط طائر في شبكة تورّط فيها ، انسحب النهار بضوئه من الدنيا وزحف عليها الليل بظلامه ، فكان عـلى عيني نصر عصبة اخرى فوق عصبة هذا المجهول الذي يواجهه .

وهنا لقطت اذنه صـدى خطوات تقترب من خيمته . فجمع نصر شتات نفسه يترقب . واذا جندي يدخل عليه فيقول له :

ـ قم ، يا اعرابي . مولانا الوالي يدعوك .

قال نصر :

ـ لا استطيع النهوض وانا مقيد اليدين والرجلين .

فتقدم الجندي ففك الوثاق عن قدميه واعانه عـــلى القيام . فشعر نصر بمغارز الالم في ظهره هـــذا الجهد الذي بذله فحرك عليه جراحاً بدأت تجف وتتكمش . الا انه كابر ألمه ومشى متقوياً الى جانب الجندي ، يتلقى بوجهه رطوبة الليل ، حتى صارا الى خيمة من حرير تعكس شعاع قمر صحراوي نقي البهـاء . تلك كانت خيمة الوالي وقد انيرت في داخلها بمصباح يقع نوره عـلى رجل بدين بطين ، اتكأ فوق مفرش من ديباج على وسادة كبيرة ، يمشط لحيته بمشط غليظ الاسنان من اصابعه ، او يـــدلك بيده وجهه السمين واللحم المترهل تحت ذقنه ، والى جانبه سيف عـــار من غمده يتناوله ساعة يشاء .

وانسحب الجندي الى خـارج الخيمة ، فقال ابن أم الحكم لنصر :

ـ أما تسلمّ ، يا اعرابي ! ارى انك غاضب .

وارتسمت على الوجه اللّحِم السمين ابتسامة عجب لها نصر ، لانها نابية عن موضعها في هذا الموقف .

واستأنف ابن أم الحكم يقول :

ـ ما كان قصدي ان يوجعوك بالسوط الى هذا الحد ، مع ان ذنبك يسير .

قال نصر : اني اعجب من هـذا الذنب الذي لفقتموه عليّ ، فمتى نفّرتُ الطرائد من طريقكم ؟ ومتى لقيتموني قبل الساعة ؟

ردّ ابن أم الحكم بصوت ناعم نعومة النفاق :

ـ قـــد عرفت انك غاضب . فـلا اجازيك بهذه النبرة التي

تخاطب بها واليك . قلْ ما اسمك .

ـ نصر .

ـ اصغ اليّ ، يا نصر . اردت ان اعوضك من هذا الذي وقع لك بغير قصد مني . وستبتهج ان اصابك هذا البلاء الذي انساق لك على اثره الخير الكثير .

قال نصر :

ـ ما انا بفاهم عنك . ولكن في ظهري آثاراً من سياط قائد فرسانك تؤلمني ، وقد نالتني ظلماً واعتداء .

ودار نصر فعرض عـــلى ابن أم الحكم ظهره الذي بقي مكشوفاً .

فقهقه الوالي كأن نصراً روى عليه نادرة مضحكة . فعصفت في نصر عاصفة من حقد كبتَها فلم يطلق لها العنان . ولكنه لم يتمالك ان يدور فيستقبل الوالي بوجهه ويقول له :

ـ ضحكُ سيدي الوالي ليس بلسماً لجراحي .

فاجاب ابن أم الحكم عـــلى الفور بتصفيقة من يديه حضر على اثرها خادم امره بانْ يمضي فيدعو طبيبه . ثم قال لنصر :

ـ جراحك هذه ليست شيئاً بذي بال : خموش من اظافر قط . وسيعالجها طبيبنا فلا تحس بها بعد الساعة . وسآمر بفك الوثاق عن يديك . ثم تسمع مني ، يا نصر ، ما يعجبك ويسكن له غيظك .

واذا بالخادم ينقلب حاملاً معه جعبة وفي صحبته شيخ ، هو الطبيب ، شابت لحيته شيبة رمادية ، وانحنت كتفاه تحت رأس قصرت رقبته ، ومال الى امام . سلّم على الوالي ، ثم نظر نظرة في ظهر نصر وقال له :

ـ دهان مرة بهذا البلسم كافٍ لشفائك، يا اعرابي .

وتناول الجعبة من يد الخادم ففتحها عن قوارير اخرج واحدة منها مسح بما فيها على ظهر نصر . ثم اخذ لفائف من قماش لفّ بها ظهره وردّ عليه القميص قائلاً :

ـ انتهى كل الشر ان شاء الله .

فقال الوالي : تستطيع ان تنصرف ، ايها الشيخ... وانت، ايها الخادم ، تقدم ففكّ هذا الوثاق عن يدي ضيفنا .

وبقي نصر عاجزاً ان يفهم السبب في هذه المعاملة الطيبة . انها لَبادرة لها ما بعدها .

... تحلحل ابن ام الحكم من اتكاءته على الوسادة فوق المفرش ، وتنحنح تنحنحته الرسمية بعد ان خلت الخيمة إلا منه ومن نصر ، ثم قال له :

ـ خذ لك مجلساً هنا على البساط وسلني ما تشتهي ، يا نصر . فاني غاظتني المعاملة السيئة التي عوملت بها .

اجابه نصر وهو يجلس حذراً متشوّفاً الى معرفة ما عسى ان ينطوي عليه هذا الموقف الغريب المريب :

ـ لا اشتهي شيئاً كأن تتركني الساعة امضي الى الحي ، فان لي ابنة عم تنتظرني فيه وما ادري كيف تكون حالها الآن .

قال له ابن ام الحكم :

ـ أراك تكترث جداً لابنة عمك هذه ، فانت ابداً منصرف الفكر اليها . فهل هي تكترث لك ؟

وعلى الفور أحسّ نصر ان هذا الرجل البدين البطين السمين الوجه الجالس امامه قد بلغ موضوعاً يهمه ، بل الموضوع الذي

يهمه بالضبط . وفي وضوح وجلاء ، استشفّ نصر اشياء كان يظن الحدس بخيلها له تخييلاً ... لقد رأى ابن ام الحكم سعاداً مع امها العجوز الخبيثة . وقد حدثته سعاد بما ابدى الوالي لامها من طمع فيها . ثم ها هو اللئيم ، بعد ان اعتقله بتلك التهمة الملفقة ورضي عن تمزيق ظهره بالسياط ، يبدي له الملاينة ليصير معه الى حديث سعاد . وأحس نصر بان إناء نفسه اصبح لا يتسع حتى لقطرة واحدة اخرى من هذا العصير المرّ الذي يُكره على تجرّعه والصبر عليه .

قال له ابن ام الحكم :

ـ ما بالك أطلت السكوت ؟

اجابه نصر مجتهداً في ان يكبح نفسه للمرة الاخيرة :

ـ سألت ، ايها الامير ، عن شيء لا ادري لمَ يعنيك . حبذا لو سألت كيف تشعر عامة الناس في هذه البادية تحت ظل ولايتك !

ـ اعلم انهم فقراء لم تسعدهم طبيعة هذه الارض التي ينزلونها وهي صحراء بخيلة . واعلم انك من اشدهم فقراً وحاجة . ثم لقد أتاني نبأ صبرك وشجاعتك تحت وقع السوط ، فوجدت نفسي عليك عطفاً ورأفة .

ففكر نصر ان يقول له : ولكن ما علاقة هذا كله بسؤاله عن العاطفة بينه وبين امرأته . غير ان نصراً أدرك ان الوالي يداوره ولا يجسر ان يكاشفه حقيقة ما يرمي اليه من وراء هذه المداورة ، بل المراوغة . فقال له :

ـ لا حاجة بي ، ايها الامير ، في شيء تخصني به دون قومي . فاجلُ عن هذا الماء الذي منعتنا وروده ، وارفع عن ظهورنا

سياطك ، ولا عليك من بخل الصحراء علينا .

الا ان ابن ام الحكم تظاهر بانه لم يسمع من هذا الكلام حرفاً . وعزم ان يشرع في هجوم خبيث يشنه على معنويات هذا البدوي الصلب ، فقال له مفاجئاً :

— يا نصر ، تظن امرأتك تكترث لك ، ولكنك فريسة وهم . انها تصدّت لي هي وامها العجوز وانا عائد من الصيد . و ... رضيت ان تفارقك . وضاقت عينا ابن ام الحكم ، وهو يلفظ عبارته الاخيرة ، كثعلب يتظاهر بالنعاس والغفلة ليتمكن من الوثب على فريسة . كان يجتهد ان يتبيّن في جليسه اثر هذه الحرب : حرب الاعصاب . فاذا بنصر يغبرّ وتضطرب شفتاه وهو يردّ السؤال بسؤال :

— وعلامَ رضيت ان تفارقني ؟

— لتتزوج والي امير المؤمنين معاوية بن ابي سفيان ، اجابه ابن ام الحكم بجواب مهيأ على شفتيه ، وفي عينيه بريق شماتة لئيمة بهذا العذاب الذي نال به نفس الاعرابي .

فقال له نصر خلال انفاسه التي ازدحمت عليه :

— قد شعرت ، ايها الامير ، انك تراوغني هذه المراوغة كلها لتوصلني الى قصد تبتغيه . ولم يفتني قط ان امرأتي وأمها تصدّتا لك في الطريق . لكن امها العجوز هي التي استدرجتها . ثم ما بالك لا تقول انك طمعت في امرأتي مذ رأيتها ، وعزمت انت وأمها عزماً آثماً تنفذانه بسلطان المال وسلطان الولاية . انك تقول ان امرأتي رضيت بفراقي ، وأقول لك : كلا ، لا يسعني ان اصدق . كلا لم لا يسعني ان اؤمن بأن مـــالك وولايتك تبلغ قوتهما

هذا المبلغ . فاذا كان كلامك حقاً فاجمعني بامرأتي فنرى ما تقول .

أجابه ابن ام الحكم :

ـ ولكنها صرحت بطلب طلاقك امام شهود عدول ، لعجزك ان تفي لها بما يجب المرأة على الرجل . وقد حكمنا بتطليقها منك . وقبلت ان تتزوجني . غير انها اشترطت شرطاً ان لا تواجهك ، فهي تعلم مدى حبك لها وتكره ان تجرحك بكشف الحقيقة لك . ثم انها اصرت لشفقتها عليك ان نهب لك مالاً ونصرفك .

فعصفت بنصر عاصفة اقتلعته من مجلسه اقتلاعاً . أفيمكن ان يكون هذا صحيحاً ؟ وانفجر صائحاً كأنه يريد سحق هذه البذرة من الشك التي زرعها في نفسه هذا الوغد المتآمر على سعادة الناس .

ـ كلا ، لا اصدق . انك تخدعني ، ايها الامير . وما سجنتني الا لتنفذ فيّ وفي امرأتي مكيدة حبكتها انت والعجوز من خيوط النذالة .

قال له ابن ام الحكم وقد مدّ يده خلسة الى مقبض السيف المصلت بجانبه :

ـ عد فاجلس ، يا أعرابي... ولا تأخذك الحدة ولا ترفع صوتك . اني كنت عالماً بما يكون وقع النبأ عليك . ولذلك داورتك ، رحمة بك ، هذه المداورة التي سميتها مراوغة . بقي ان تعقل وان ترضى بما لا بد لك من الرضى به . سأعطيك مالاً يغنيك . وسأجعل لك سبيلاً الى نسيان امرأتك من اخصر طريق .

وفجأة انحسرت شفتا الوالي عن اسنانه انحساراً لم يدر نصر هل ذاك ابتسام ام تكشير . ثم قال له :

ـ هل تشرب الخمر ؟

وقام من مقعده ، ببدنه الضخم ، قيماً اسرع فيه وان كفه جهداً . ومشى فضغط على كتف نصر يدعوه الى الجلوس ، فجلس في حركة طواعية كحركة الآلة . وتابع ابن أم الحكم مشيته الثقيلة الى باب الخيمة فصفق بيديه ، فدنا منه الحارس ودار بينهما كلام مهموس .

ثم عاد الوالي فاحتل مجلسه على المفرش ، ملقياً الى جانبه السيف ، متكئاً بظهره على الوسادة ، حتى دخل الخادم يحمل على طبق ابريقاً كبيراً بفم كالمنقار في طرفه انبوب مقوس كعنق الديك ، وثلاثة اقداح من نحاس منقوش صقيل ، والواناً من الطعام وضعها بين الوالي والاعرابي . ثم رفع الابريق فأماله فامتد من منقاره حبل زيتي ذهبي صاف كأنه صبحة ديك في السحر ، حتى امتلأت الاقداح الثلاثة ، وغادر الخادم الخيمة .

فتناول ابن أم الحكم قدحاً وقال لنصر : خذ مثله . وافرغ الوالي كأسه في هذا الضرف العظيم الذي هو بطنه .

فاما نصر فبقيت يده ترتعش بالكأس عند فمه . وغرقت عيناه الذاهلتان في السائل الزيتي الذهبي امامه ، ولم يكن ذاقه من قبل ، ولا كانت هذه هي المناسبة التي يشتهي ان يذوقه فيها .

قال له ابن أم الحكم وفمه يتمطق :

ـ اشرب ، اشرب !

فغمس نصر شفتيه في الكأس بتلك الحركة الطواعية كحركة الآلة . وامتص جرعة انسربت في حلقه ناراً مشبوبة . وثاب اليه شعوره بهذا الشقاء العظيم الذي ينشر عليه جناحيه الاسودين ، وادركته نوبة من سعال ، ودمعت عيناه ، واشتهى لو يرسل لدموعه

العنان . غير انه ما زاد على ان مسح عينيه بحاشية من ثوبه .

فقهقه ابن أم الحكم حتى ارتجّ بطنه وقال له :

ـ شيء لم تتعوده ، يا نصر . لكنك اذا الفته عرفت نعمته . وسيحضر بعد قليل من يفتح شهوتك له .

وانحنى ابن أم الحكم يلتقم شيئاً من الطعام ويملأ لنفسه قدحاً آخر ، واذا بجانب من جوانب الخيمة ينزاح حريره كأنه ستار مسبل ، ليطل منه رأس معصب بعصبة حمراء ، اشقر بشرة الوجه ، تجول فيه عينان زرقاوان زرقة ظل السماء في الماء النقي .

فقال ابن ام الحكم :

ـ اهلاً بشقراء . سأفرغ هذه الكأس الاخرى ابتهاجاً بطلعتك.

وأمال الكأس في فمه حتى ارتفع اسفلها فقابل سقف الخيمة ، وسرحت منها قطرات علقت بلحية الوالي ، فتألقت في الضوء كالندى الصباحي على أسلات اعشاب يابسة .

ـ واين العود ، يا شقراء ؟ لِمَ لم تحمليه معك ؟

فالتفتت العينان الزرقاوان صوب المكان الذي خرجت منه صاحبتهما . ومشت المرأة بخفيها مشياً رفيقاً كأنها تطأ عيوناً نائمة وتسحب اذيالاً من نسيم . وغابت لحظة وراء الستارة ، ثم عادت تضم إبطها على بطن آلتها الموسيقية الخشبي المنفوخ .

وجلست ثالثة الاثنين ، تبتسم ابتساماً يظهر انه جزء من حرفة لم تتقن تعلمها بعد .

وناولها ابن ام الحكم الكأس الثالثة التي كانت تنتظرها على الطبق . وعاد هو فملأ قدحه من الابريق الكبير وقال لها :

ـ طالما تحدثت ، يا شقراء ، عن شباب الروم . والله لتنسينهم اذا

عرفت شباب العرب من معدنهم في البادية . انظري، كيف ترين هذا الفتى البدوي الاسمر العذب (وأومأ بعينيه الى جهة نصر) . لا يهمك ما ترين من ثيابه الزرية ولونه المتقع وسهومه ووجومه . سيُبدل هذه الثياب ويستريح من تعبه ، ويستعيد نضارته وصفاءه ، فتشهدين منه ما يساوي شباب الروم جميعاً .

فحوّلت المرأة عينيها الزرقاوين ، في تؤدة ، نحو نصر ، والابتسامة الحِرَفية ما زالت منطبعة على ثغرها الشفاف الوضيء . وقابلها نصر بعينيه ... فراغٌ وجمود قابلا فراغاً وجموداً ...

وقال ابن ام الحكم :

— هيا اشربي ، يا شقراء ، على معرفتك بنصر . وهيا اشرب ، يا نصر ، على معرفتك بشقراء . ما احسنكما زوجاً وزوجة !.. هل اشجعكما على الشرب ؟

وقلب الكأس في الضرع العظيم . ودفعت شقراء دفعة من الكأس في حلقها اختلجت لها عند الجرع جلدة نحرها البيضاء الرقيقة . وغمس نصر شفتيه في الكأس غمسة لم يزد على ان رطب بها جوانب فمه وهو يغصب نفسه على قبول الطعم غصباً تجلى في انقباض سحنته .

قال ابن ام الحكم مقهقهاً :

— اعذريه ، يا شقراء . فهذا شيء لم يتعوده الفتى . لكنه سيتعوده . وانقطعت قهقهة ابن ام الحكم وبدا عليه خدر اخذ باجفانه . وثقل عليه رأسه فألوى به على صدره ، واستقرت عيناه في القدح الفارغ في يده .

ثم نفض رأسه نفضة كمن يستعيد صحوه وقال :

ـ شقراء ! ألا تسمعينا شيئاً من غنائك وضربك على العود ؟

فحنت المرأة آلتها المنتفخة البطن ، وردّت قائلة بلغة عربية دَلّ نطقها على انها غير بعيدة العهد بها :

ـ ماذا يختار سيدي ان اسمعه ؟

وانتقل الفكر بنصر الى ربابته ، واوجعه اليها الحنين .

وقال ابن ام الحكم بلسان اصبح يدور ثقيلاً في فمه :

ـ أنتِ ادرى بما احب ، يا شقراء .

فجعلت المرأة تعرك بأناملها اللدنة آذان الآلة الموسيقية ، وتنقف الاوتار المشدودة نقفات متقطعة تختبرها بها . ثم امسكت بريشة جعلت تضرب بها على الاوتار فتهتز كأنها في ذنب طاووس يجتهد في نقر الحب . وأناملها تتحرك على اطراف الأوتار عند آذان العود ، تضغطها ضغطاً او تنزلق عليها انزلاقاً ، فينبعث صوتٌ صاف كرنين اجراس فضية ، تقع عليها ، وقعاً موزوناً ، مطارق دقيقة رقيقة . وفي احيان تحبس الانامل اللدنة الاوتار الطيعة حبسة شديدة ، وتنقرها الريشة نقرة قوية ، فتنطلق نغمة كالدمعة المنفجرة تلبث الاوتار على اثرها في اختلاج كأنها ترتعش بسرى تيار عنيف خفي . وتنسبل الاهداب على العينين الزرقاوين كأن التيار الخفي سرى في قلب صاحبتها فايقظ فيها ذكرى شجية .

... الى ان حركت المرأة الشقراء ، في العصبة الحمراء ، حنجرتها وفتحت شفتيها لتوسع سبيل الفضاء لصوت مؤنث ناعم ، يسيل مع نغمات العود خافتاً رقرافاً اول الامر ، ثم متموجاً في صعود مع ثورة شعور ينطلق من سجنه لاعجاً محرقاً .

لبيت تخفق الارياح فيه أحب اليّ من قصر منيف

ولبس عباءة وتقر عيني احب الي من لبس الشفوف
وأكل كسيرة في كسر بيتي أحب اليّ من أكل الرغيف
وخرق من بني عمي فقير أحب اليّ من علج عنيف !

ـ لا فض فوك يا شقراء ، لا فض فوك ! قال ابن ام الحكم، وفتح اجفانه الثقيلة على المغنية التي سكنت حنجرتها وانطبقت شفتاها ، وماتت حركة انامليها وريشتها على أوتار العود . ثم ألوى برأسه على صدره وضحك كأنه يخبيء ضحكه في قميصه ، وتمتم بصوت حذر :

ـ قاتلك الله ، يا ميسون بنت بجدل الكلبيّة ، زوّدت هذا الماكر زاداً يقي على الدهر !.. ولم يجسر ابن ام الحكم ان يلفظ صراحة اسم هذا الماكر ، وهو الخليفة معاوية ، وقد قالت فيه ميسون امرأته البدوية تلك الابيات او قيلت على لسانها .

فاستطرد ابن ام الحكم :

ـ حبذا لو ترقصين رقصة ، يا شقراء ، فتزيدي في سرور ضيفنا واستغراقه في نعيم الغناء . والتفت الى نصر ، ونصر منخطف سابح قد لج في سهومه ووجومه مع الموسيقى والغناء وما يغمر نفسه من شقاء .

فاجابت شقراء :

ـ يعلم سيدي الوالي انني لا استطيع الرقص إلا ان يكون من يعزف لي .

ـ اذن فلا ترقصي ، رد عليها ابن ام الحكم في عفويّة تشبه البلاهة ، وكأنه نسيَ انه هو الذي طلب اليها الرقص . ثم فغر فمه في تثاؤبة كادت تشق شدقيه ، وألوى برأسه ، وفرش لحيته على

صدره .

وخيّم على المجلس سكون ثقيل . لا حركة الا ان تحول شقراء عينيها الزرقاوين في تؤدة الى جهة نصر ، او يستقرّ نصر بعينيه على جانب من وجهها يتأمل بشرته الرقيقة التي توشك ان تشفّ عن انسياب الدم تحتها .

وبعد ؟

شخر ابن ام الحكم شخرة ، هز على اثرهـــا رأسه منتفضاً ، واسرع بيده الى السيف في جـانبه ، وفتح عينيه مرأرئتين على الاعرابي امامه والجارية الرومية وطبق الخمر والطعام . وانفرجت شفتاه عن ابتسامة صفراء . ترى ، أكان نصر حقاً يفكر في تناول السيف وضرب الوالي ضربة يطيح بها رأسه ، كما عَرض لابن ام الحكم في غفوته القصيرة ؟

وشفع ابن ام الحكم ابتسامته الصفراء بتثاؤبة كبيرة ، وفرك عينيه فركاً عنيفاً وهو يقول :

ـ مجلسكما بارد بحضوري ، ايها الحبيبان . سأتركما فأنسحب لأنام . انتما الساعة حبيبان . ثم انتما غداً زوجان . اوصيكِ به خيراً ، يا شقراء . واوصيكَ بها خيراً ، يا نصر .

ونهض متثاقلا ، وبيده السيف ، فمشى الى الموضع الذي اقبلت منه الجارية وغاب خلف الستارة ، فتمدد على الفراش . لكنه لم يستطع ان ينام ان كان قد نوى النوم .

ولبث نصر وشقراء في هـذا المجلس الذي يظـه عبء من الصمت . وقد خطر لنصر ، اول شيء بعد انصراف ابن ام الحكم ، ان يثب على قدميه فينطلق من باب الخيمة فـاراً تحت سجف

الليل . لكن كيف يصنع بالحارس الذي يذرع المكان جيئة وذهاباً خارج الخيمة ؟ ثم كيف يصنع بمن في الخيم كله من خدم وجنود ؟ ان الشبكة حوله شديدة الاحكام .

وفطن الى العينين الزرقاوين تطيلان اليه النظر في سهومه ووجومه . كانت شقراء تتأمل شفتيه السمراوين الظمآوين ، فاذا بها تشيح عنه حين ادركت انه فطن اليها ، وتبتسم ابتسامة وانية وهي تقول له : ألا تشرب ؟ ثم تمد ساعداً من عاج الى الابريق فتملأ كأسها بالسائل الزيتي الذهبي وتجرعه في دفعة واحدة .

فلم يزد نصر على ان بلّ شفتيه بالخمرة ، كعادته ، وقال لها :

ـ إن لك لشأناً ، يا امرأة . فما شأنك ، اصدقيني .

فنظرت اليه نظرة طويلة نبعت على اثرها الدموع في عينيها الزرقاوين ، فدفنت وجهها في راحتيها ، واضطربت كتفاها بشهقات خنقتها لكي لا يعلو لها صوت .

فأعاد عليها نصر السؤال : ما شأنك ؟ اصدقيني ، اصدقيني الخبر .

فرفعت اليه وجهاً بليلاً بدموعها ، وجعلت تقص عليه حكاية طويلة مفعمة ألماً وعذاباً ، عرف منها نصر ان هذه المرأة الشقراء صبية رومية سبيت سبياً في احدى المعارك ، فأصبحت جارية تباع وتشرى ، بعيدة عن اهلها وملاعب طفولتها ، بعيدة عمن تحب ، قد زاد في شقائها ونكد حظها ان سقطت بين يدي هذا الوالي الذي لها بها وقتاً ، ثم هو يريد الآن ان يزوجها نصراً ليتزوج بامرأة نصر كأن النساء بهائم او متاع يُقايض مقايضة .

فأجفل نصر كأنه كوي على غفلة بقضيب من حديد حمّي بالنار حتى احمرّ .

وحسبت شقراء انه استاء لما بدر منها ، وانه راضٍ عن هذه المقايضة ، فأسرعت تقول له :

ولكني افضلك رجلاً على هذا الوالي المستهتر ، وافضل عليه رجلا أياً كان .

واجتهدت في ان تبتسم له ابتسامة صادقة لتقنعه باخلاصها في ما تقول .

فأجفل نصر هذه المرة ايضاً . وكان قد أجفل في المرة الاولى لما هاله من فظاعة الوالي . فخطر له في المرة الثانية ان هذه المرأة الفاتنة ربما كانت شريكة الوالي في مكيدته وانها تتبع خطة في استدراجه الى حبائلها القانصة .

فقال لها وفي صوته نبرة قاسية :

— اياك ان تحاولي المستحيل . فاني رجل لا مطمع له في غير امرأته . وبلغي هذا الوالي النذل الذي اخرجك لتستدرجيني الى حبائلك انه قوّاد بارع ، ولكنه خائن .

فانفجرت عينا الجارية دموعاً غزيرة ، وطأطأت رأسها ، وسترت وجهها بيديها ، واغرقت في النحيب .

فمس قلب نصر شعور من ندامة وشفقة عصَرَه عصراً . وأوشك ان تغرورق عيناه في العبرات وهو يتأمل رأس هذه المرأة في العصبة الحمراء التي استرسلت من تحتها شعرات كأسلاك الذهب او كالخيوط الدقيقة من شعاع الشمس .

وهنا اهتز جانب الخيمة الذي اختفى خلفه ابن ام الحكم ، ثم بدا من ورائه بطن عظيم فوجه سمين فبدن ضخم ، بيده السيف . وانفتح فم يرشق الكلمات رشقاً ويهز معها لحية كأنها

مروحة يروّح بها انسان يوشك ان يختنق في يوم صائف .

صاح ابن ام الحكم يخاطب شقراء :

ـ أما تكفين ، ويحك ! عن هذا النحيب ؟ وأمسك بمنكبيها فانهضها ودفع بهـا ، فتوارت خلف جانب الخيمة الذي خرجت منـه ... « اذهبي ، اذهبي ، ايتها البومة ! »

ثم صاح بنصر وهز في وجهه السيف : اما انت ، ايها الاعرابي الكلب ، فسوف تعلم مصيرك اذا طال عنادك .

وصفق ابن ام الحكم بيديه ، فأسرع الحارس الى داخل الخيمة ، فجاء يقول له : جيء بحبال غليظة فاوثق هذا الكلب وجرّه الى سجنه حيث كان .

الفصل الثامن

مع ذلك الصباح ، صباح الليلة التي اعتقل فيها نصر ، طلع على سعاد فارس تصحبه امها في ثياب جديدة زاهية من القماش اليماني ، أثارت دهشتها وأمرها الفارس بأن تسير وأمها فوراً الى مخيم الوالي . فاعترض حلقها « قالب » من مادة لا تذوب برغم ما بلعت ريقها . واوشكت ان تنفجر باكية ساعة وقع نظرها على امها ، لكنها تذكرت ان هذه العجوز لم تبق جديرة بان ترى دموعها ، فعبست في وجهها تعبيساً حاقداً وقالت بلهجة ملؤها التحدي :

— إني مستعدة !

ومضى الثلاثة في الطريق الى مخيم ابن ام الحكم . والعيون عليهم من كل صوب في الحي . أم ترى كانت العيون تلك ترمق ثياب العجوز الجديدة الزاهية ؟

... كان ابن ام الحكم ، حين مثلت بين يديه سعاد وأمها في خيمته الخاصة ، قد لبس أبهى ثيابه ، وتطيب بازكى عطوره ، وتربع في مكان عال ، طوراً يمسح بيده على بطنه ، وتارة يمشط لحيته بأصابعه ، ويتمخنح تلك التنحنحة الرسمية التي تكاد تكون علامة فارقة بين « العظماء » و « الوضعاء » في الدولة . فقال لسعاد ، ونبرة صوته مزيج من اصطناع اللطف واصطناع الهيبة :

ـ آثرت ان اتخلف اليوم عـــن الصيد لاستدعيك وأراك . أيسرك ذلك ؟

أجابته سعاد وفي محياها الفتي شحوب ونهكة :

ـ انما السرور ، ايها الامير ، لمن لهم السرور .

ـ ولمَ لا يكون لك السرور ؟ ألعلك محزونة عـلى فاتك ، وقد سمعت انه كان يودك ؟

ـ ظن في غير موضعه ، ايها الامير . وانك ادرى بسبب حزني .

قال لها وكأنه لم يدرك اشارتها الخفية الى حبس نصر :

ـ ولكن سرورك سيكون عظيماً جداً ساعة تعلمين بهـــذا الابتسام الذي غمرك به الحظ . لقد عزم ابن ام الحكم ، والي الخليفة معاوية بن ابي سفيان على البادية ، ان يتخذك له زوجة .

فشعرت سعاد برعشة تنتابها ، وبمثل النار تشب في عروقهـــا . قالت له وقد تجاسرت عليه بنظرها الحاد :

ـ وكيف يجوز ، ايها الامير ، وانا امرأة متزوجة ؟

اجابها ضاحكاً :

ـ طبعاً ! إني رجل لا يكره شيئـاً كما يكره الحرام . فلو انك كنت باقية زوجة لزوج لما طلبت منك ما طلبت .

فتفرست فيه سعاد من شدة الدهشة وطاف بعينيها خيال من جزع . اومض في ذهنها ان نصراً قد يكون لقي حتفه في السجن بمكيدة مدبرة . قد يكون رجال الوالي استفزّوه فثارت به الحميّة فعاركهم فقتلوه . على انها لم يخطر لها ببال هـذا الخبر الذي راح يمزق به الوالي اذنيها . قال :

ـ كأنك لا تصدقين انك لست الآن زوجة لزوج . فاسمعي .

لقد طلّقك نصر . اغرته امك بالمال وبحسناء سواك : جارية رومية في حاشيتي، شقراء بضة ، فتخلى عنك بشهادة اثنين من شهود عدول . ولقد عظم عليه ان يراك بعد الذي فعل ، فسألني العفو عنـــه ، وغادر السجن يضرب في الآفاق ليستوطن وزوجته الجديدة مكاناً غير هذا المكان .

ولم تخلُ العجوز ، ام سعاد ، مـن شعور بالمفاجأة حين سمعت كلمات الوالي . وقالت في سرها : حقاً لقـد بزني الرجل في الحيلة والمكر . فما كنت والله ليخطر لي خاطر هذا النبأ عن زواج نصر .

اما سعاد فترب محياها . لم تبق فيه قطرة من دم . قالت :

ـ ان كان نصر فعل ذلك فسامحه الله . وان كان لم يفعل فسامحك الله ، يا سيدي . اما انا فما ابغي زواجاً ابداً . ومولاي له في جواري المدينة ومغنياتها ، وبنات المقاصير والحمامات في دمشق غنىً عن جلافة الاعرابيات مثلي .

وعجبت سعاد من نفسها لهذا الهدوء الذي استطاعت ان تواجه به الموقف الصاعق . ولم تتمنَ شيئاً كأن تنصرف فتخلو الى ذاتها ترسل العنان لما تجيش به نفسها . واستأنفت تقول بصوت خفيض لا يكاد يبين ، كأنه الانين :

ـ والآن ، هل يأذن لي سيدي بالانصراف ؟

فسمعت فجأة صوتاً جافاً يجيبها :

ـ كلا ، اذا اذن مولانا فاني لا آذن . وانا القيمة عليكِ .

كان هو صوت أمها . مـــا كادت تسمعه سعاد حتى أحست بزلزال عنيف ينتابها . ونظرت الى امها تتأملها في هذه الثياب

الجديدة الزاهية عليها ، فخيل لها انها تنظر الى حية رقشاء ، وانها لا تشتهي شهوة كأن تسحق رأسها . فاقشعرت حتى العجوز تحت تلك النظرات . ورأت ان تلين في الكلام لهذه البنت المتمردة ، فقالت لها :

ـ احمدي الله ، يا سعاد ، على هذه المحنة . فقد كشفت لك مقدار الحب الذي كان يخصك به نصر . انك كرهتني لاني اردت لك زوجاً ثرياً كريماً . وزعمتني اطمع في بيعك بالمال ، فهل لم يبعك نصر بالمال ؟ هل ثبت على عهدك حين حولت وجهك عن دنيا النعمة التي سخرها لك الجمال وقنعت بأن تكوني زوجة اعرابي فقير حقير ، يعزف على ربابته ، ويقوتك ويقوت نفسه بخدمة الناس وبغنيات له لا تغني ولا تسمن من جوع ؟ قليلاً من التفكير ، يا ابنتي . ان نصراً قد تركك ، وتزوج سواك جارية رومية شقراء بضة . فيا للخائن الدنيء ! اطرديه من قلبك ، وأقفلي دونه كل باب من ابواب الذكرى . وكوني راضية شاكرة بان يسر الله لك في مولانا الامير رجلاً يكره الحرام ويبغيك زوجة له تشاركينه في كل ما تشارك فيه الزوجات المحبوبات بعلهن .

لشد ما انتفضت سعاد حين طرق سمعها ذكر الزوجات وبعل واحد . ولشد ما اشتهت ان تنفجر صارخة بشيء تقوله لهذه الام التاجرة فتخرسها اخراساً . لكن اوشك غيظ سعاد ان يخنقها . وشلتها هذه الحيرة التي تستبد بالانسان اذا واجه موقفاً يجهل فيه الحقيقة . بل لم تنج من شعور بمخالب الغيرة تنشب في قلبها . كانت عاطفتها تنكر ان يكون نصر طلقها وتزوج سواها بترغيب او ترهيب . لكن من يدري ما يكون تأثير المال وجارية رومية

شقراء بضة ؟ أواه ! كيف السبيل الى معرفة اليقـــين الذي لا شك فيه ؟

ولبثت صامتة مستغرقة في صمتها ...

قال ابن ام الحكم : اظنك اقتنعت ، يا سعاد .

وأردفت امها تقول : لا تضيعي هذه الفرصة ، يا ابنتي . ان مولانا الوالي عازم على الانصراف بعد يوم او يومين . وقد احب ان يبت في هذا الامر قبل ذهابه . فأعلني له رضاك ، ولتكن الليلة عرساً لم تشهد مثله البوادي .

قالت سعاد وجبينها يتبلل بالعرق : ويحي ! إن انفاسي لتضيق في هذا المكان . دعوني اخرج . وفكرت في ابيها الشيخ الضعيف . انها تستطيع معه ان تبكي ، على الاقل ، فيشاطرهـــا البكاء . وهنا ، على ذكر ابيها ، فطنت الى شيء ظنته لسذاجتها (سذاجة الغريق الذي يتمسك بالقشة) وسيلة تفرّج عنهـا في هـذا المأزق الخانق . تذكرت ان امها — يوم لقيتا ابن ام الحكم معاً لاول مرة — قد زعمت نفسها ارملة وبنتهـا يتيمة . فاذا هي قالت الآن للوالي انها تريد الذهاب الى ابيها ، اتضح له كذب امها ، فيغضب على هذه العجوز لتزويرها عليه .

ورفعت سعاد الى ابن ام الحكم عينين متعبتين ضـارعتين ، وقالت له :

— اريد الذهاب الى ابي ، يا سيدي الامير . ان لي اباً شيخاً ، وربما جهلت ذلك .

فابتسم ابن ام الحكم . يا للغرابة !.. لم يفاجئه الخبر . وقال لعساد وهو يفتل باصابعه اطراف شعرات من لحيته :

– ولمَ تذهبين الى ابيك ؟ فهل يمكن ان يعارض في زواجك بعد اذ يعلم انني انا طالبك وان نصراً طلقك وتزوج سواك وغادر المكان بما قبض من مال ؟ لكن اذا كنت ترغبين في حضور ابيك بعثت في طلبه .

وصفق بيديه السمينتين الرخصتي اللحم ، فأصدر امراً الى احد فرسانه ان يمضي الى حي بني عذرة فيحضر الشيخ ابا سعاد .

ووقفت المرأة الصبية كالظبية الواقعة في شرك القناص تنظر بعينين كبيرتين ، مفتوحتين على الاشياء ولا تريان شيئاً ، كأنهما من زجاج . لقد انقطعت بها الاسباب فلن تستطيع افلاتاً من هذا الموضع الذي يضيق عليها انفاسها ، ولن تستطيع ان تهرب في هذه الصحراء الفسيحة ريثما تستيقن من امر نصر .

وفجأة تذكرت انها ، قبل ان تتزوج نصراً ، كانت على وشك ان تتزوّج فتىً غنياً اقبل يوماً على الحي يخطبها . لقد عمدت يومئذ الى الجنون ووعدت نصراً بان تجن كلما خطبها خاطب . فلمَ لا تجن الآن ؟

وفيما الوالي وامها يتوقعان منها كلمة الرضى ، ارسلت صيحة ناحبة طويلة ، وراحت تقلب عينيها في رأسها وتشد ثيابها لتمزيقها والزبد يرغى على زاويتي شفتيها .

فنهض الوالي يهدئها ، وترامت عليها امها ، لكن دفعتهما عنها دفعاً عنيفاً وحدجتهما بعينين تبرقان ببريق وحشي .

قال الوالي وهو يلهث لازدحام انفاسه : هل جُنّت ؟

اجابته امها : لا عليك ، يا مولاي . إني اعرف هذه الخبيثة ، فهي تصطنع الجنون اصطناعاً ...

واستولت النهكة على سعاد ، فانهارت انهياراً على ارض الخيمة لا تتحرك إلا بمقدار ما تهزها انفاسها الخافتة .

وجاء ابوها قلقاً مضطرباً ، لا يعلم لمَ ارسل الامير فارساً من فرسانه يطلبه بهذه السرعة . فلما ادخل خيمة ابن ام الحكم وابصر ابنته مطروحة ارضاً ، رمى زوجته بنظرٍ شزر ، وهمّت شفتاه بان تغلظا لهـــا في الكلام ، لكنه فطن الى وجود الامير فـارتبك وارتقصت لحيته . وأراد ان يبـادر بالتحية فغصّ بهـــا حلقه ، واسترخت حنكه ، وتحدرت دمعتان كبيرتان من عينيه العمشاوين على خديه الذاويين .

وتنبهت سعاد لمجيئه فنهضت تعانقه وتشهق بالبكاء .

وضحك ابن ام الحكم لهـذا المشهد . ضحك مستخفاً عقل هذه الصبية البدوية التي تعـاند في ما لا يوجب العنـاد . وابصرته ام سعاد ضاحكاً فقالت له : شيء يثير الضحك حقاً ، يا مولاي . لكن المزاح سينتهي فيعقبه الجد .

وصاحت العجوز بشيخها : أراك تفسد هذه البنيّـــة ، يا شيبة النحس . لقد طلقها الصعلوك ابن اخيك بمـال دفعته له من كرم مولانا الوالي وتزوج بجارية روميّة من جواري مولانا ، ولقد عفا عنه الامير . فما خرج من السجن حتى غاب في الآفاق بين سمع الارض وبصرها . ويريد الامير ان يتزوج ابنتنـا بعد ان تركها ابن اخيك ، فما تقول ؟

اجاب الشيخ وقد ضعف امام عجوزه ، ولان لقوة الاغراء ، ورأى عيني ابن ام الحكم تحدجانه بما لا يحمل على الطمأنينة :

– وهل لمثلي ان يعـــارض مشيئة الامير ويـتردد في شرف

مصاهرته ؟

فكفت سعاد عن معانقته . ابتعدت عنه وانحبست دموعها فجأة ، وعادت تصبح صيحتها الناحبة الطويلة .

إلا ان اذناً لم تسمعها غير اذن ابيها الشيخ الضعيف الحائر .

وأبى الوالي وام سعاد ان يضيعاً وقتاً . فعقد ابن ام الحكم لنفسه على سعاد في تلك الساعة . قال لها كمن يصدر امراً عالياً من اوامر الدولة :

ـ زوّجتك نفسي ، يا بنيّة !

فصاحت سعاد صيحتها الناحبة الطويلة التي انقلبت الى فهقهة متحدّية .

وعلى الاثر ، نودي في ذلك الحي الهادىء المنقطع من احياء بني عذرة ان ابن ام الحكم ، والي الخليفة معاوية بن ابي سفيان ، قد تزوج سعاداً من نساء الحي بعد ان طلقها زوجها نصر . وسيقام الليلة عرس عظيم في خيام الامير تنحر فيه الذبائح وتوقد النيران وتوزع العطايا على الناس .

وحقاً كان العرس تلك الليلة كما نودي عليه عرساً للجميع حتى الصباح . أكلوا فيه ما شاؤوا على ضوء نيران ملأت الفضاء ، واخذوا فيه الهدايا الثمينة . ولكم حسدت امّ سعاد من ام واباها من اب . بل لكم حسدت سعاداً من فتاة !

اجل ، كان العرس للجميع الا لسعاد . كانت في مأتم ، تتذكر العرس الآخر ، عرسها الحقيقي ، ليلة زُفّت الى نصر وعزف على ربابته عزفاً طربت له الصحراء !

مكثت سعاد اثناء العرس قابعة في خيمة الوالي الخاصة ، في تلك الخيمة التي شهدت حوادث الليلة الفائتة بين ابن ام الحكم

ونصر وشقراء. ولقد وضعت سعاد هناك وضعاً وربطت بالحبال لانها اصرت على جنونها ، وخشي الوالي وامها ان تهرب .

وكانت الفتاة الاعرابية ، اذا استغرقت حيال هـذا العرس ، في تذكر العرس الآخر ، لا تملك ان تفكر في الامر الذي ما برح يضغط عليها ضغط كابوس ثقيل منذ ان حدثتها به امهـا والوالي . فهل يمكن ان يكون نصر طلقها حقاً ، راضياً بمال دفع اليه ، بالغاً ما بلغ ؟ وهل يمكن ان يكون عدل عنها الى ذراعي الرومية البضة الشقراء ؟ ان عاطفتها لتأبى ان تصدق عن نصر مثل هذه الدناءة وهذا النكث بالعهد . لكنها مع ذلك لا تستطيع ان تقطع في الامر قطعاً . فهي في شك ربما كان واهن الاساس ، الا انه يعذبها بأشد مما يعذبهـا هـذا المصير البغيض الذي ساقتهـا اليه قسراً مآرب لا ترحم . وبعد ، فكيف تستقبل هذا المصير البغيض ؟ أواه لو كانت تعلم علم اليقين حقيقة السلوك الذي سلكه نصر !

صحّ عزمها آخر الامر على ان تعمل بوحي عاطفتهـا ويقين قلبها . فنصر لم يطلقها ، ولم يتزوج سواها جارية رومية ، او غير رومية ، شقراء او غير شقراء ، وكفى ! وهذا الزوج الجديد ، الامير ابن ام الحكم ، لن يصادف منها الا امرأة مجنونة مصرة على جنونها ، لا سبيل له الى الدنو منهـا الا وهي جثة هامدة .

ونبض قلبها نبضاً مسعراً محموماً ، وبقي ينبض .

الفصل التاسع

في هذا الآن نفسه ، كان في موضع آخر من خيام الوالي قلبٌ ، كقلب سعاد ، ينبض هو الآخر نبضاً مسعراً محموماً . وكأن القلبين في نبضهما يتناديان ويتجاوبان ويتبادلان ، في خفاء ، قوّة وصبراً وأملاً وعتاباً .

ذلك ان نصراً ، بعد تلك السهرة التي قضاها في صحبة الوالي وشقراء ، أقيم هو ايضاً في المخيم موثقاً بالحبال تأتيه اصوات العرس وكأنها خناجر حادة الشفار تغوص في اعماقه . سوى ان الحبال التي ربط بها كانت اغلظ ، وعقدها اشد . وكانت الخيمة ، التي وضع فيها ساعات متراكمة يبدو ان لا نهاية لهـــا ، خيمة زرية عارية الارض مظلمة ، لا يُحمل اليه فيها إلا ما يمسك رمقه مـن فضلة طعام تدسه له في فمه يد غريبة لأن يديه مقيدتان .

لكن لعل هذا كله لم يكن بمفرده ليفرغ الهمّ والكدر في قلب نصر . فلقد الف شظف العيش وتعوّد الحرمان . ولقد فعل ما لا يُعدّ هذا الحبس بجانبه إلا حظاً طيباً . وتلك السياط التي نهشت ظهره ، وهذه الحبال التي تقيّده الآن ، ليست سوى بلاء يسير بالقياس الى باقي البلاء .

فهل يمكن ان يكون هذا الوالي الوغد صدق في مـا قال ؟ هل يمكن ان تكون سعاد فرحت ولو ذرّة من فرح ، في سريرة

نفسها باعتقاله وضربه بالسياط ؟ ترى ، هل علمت بضربه بالسياط ؟ وهل يمكن ان تكون رضيت حقاً بان تقطع ما بينهما لتتزوج ابن ام الحكم ؟ وعلامَ تتزوجه ؟ ألتنعم بجاه او بمال ؟ انتزل على ارادة أمّ دنيئة لا تعنيها سعادة اعز الناس عليها طمعاً في مكسب ؟ أواه ! لو كان يستطيع ان يقتنع بان سعاداً انما رضيت — ان كانت قد رضيت — بان تفعل ذلك في سبيل الحب ؟ فالحب مهما بلغ من جرحه لا يحقد اذا غلبه حب آخر . فاما اذا غلبته التجارة فانه ليعجز عن المغفرة . ولا يلطف حقد الحب ، بل يزيد في مرارته ، ان يتحول موضوع شفقة المحبوب ؟ وماذا تخال سعاداً ؟ هل تخال انها ترضيه اذا اشترطت بان يوهب له مال لقاء تركها اياه ؟ يا للحقارة !

تلك هي الخواطر التي جعلت تساور نفس نصر في اسئلة ملحة محرقة كأنها تحفر في نفسه باطراف قضبان حديدية محماة بالنار .

غير انه كان لا يلبث ، في لمحات ، ان يستعيد شيئاً من طمأنينته حين يعرض له ان هذا كله يحتمل ان لا يكون سوى مؤامرة من ام سعاد الافعى الخبيثة وهذا الوالي الوغد . فهذه الكربة ، اذاً ، لا بد ان تنجلي . وهذا السجن الذي زوي فيه عن الشمس والهواء لا بد ان يزول ... هو الحب والثقة بالحب كانا يثبتان فيه عزمه كلما طغى عليه الوهن .

لكن ترى ما هذه الاصوات الليلة ، اصوات العرس ؟ يقيناً ان اكره ما يكرهه وأخوف مما يخافه قد وقع .

ومن ثم يعود فينشب الصراع الجبار في نفسه بين يأسه الذي استفحل عليه جداً هذه المرة ، ورجائه ، رجاء الحب ، الذي ابى

الا ان يصمد متحدياً معانداً كل مظهر من المظاهر الصاعقة الساحقة .

وفجأة دخل عليه داخل في وحشة الخيمة ... كان هو الرجل الذي يحمل اليه فضلة الطعام التي يمسك بها رمقه . وكان هو الحارسَ نفسه الذي واجه ام سعاد يوم بكرت الى الامير في ذلك الصباح غب مصرع فاتك ، فلم يسهل لها الدخول الا بعد ان وعدته بالمكافأة ، على ان المكافأة بقيت وعداً فارغاً ، فانطوت نفسه على مرارة .

قال الحارس لنصر : جئتك هذه المرة بشواء ، هيا كلْ .

وكانت عادة نصر اذا خاطبه الحارس ان يلتزم الصمت المطبق . غير انه وجد الآن دافعاً قاهراً على الكلام . فاجاب بصوت مسحوق : اني اسمع يا اخي اصوات عرس في مخيمكم .

ـ هو ذاك ! لقد تزوج الوالي . وما ادري ما عدد هذه المرة التي يتزوج فيها !.. كلْ ، ما لك لا تأكل .

وانحنى فدس له في فمه قطعة من الشواء . فمضغها نصر في غير شهوة ، ثم تفلها قائلاً : شد ما هي مرة ! وصمت هنيهة ، ثم سأل :

ـ ومَنْ هذه التي تزوجها الوالي ؟

اجابه الحارس :

ـ لقد شبع من بنات المقاصير والحمامات في دمشق ، فتزوج ، هذه المرة ، امرأة بدوية اسمها سعاد من نساء هذا الحي القريب من احياء بني عذره ، واحسب انك انت من هذا الحي !

قال نصر ، وفي صوته اوجاع كأن خنجراً طعنه في صدره : ويك ! انها امرأتي !

قال الحارس وهو يعضّ على شفتيه : لقد قدّرنا ذلك ، وعلمنا

ان السياط التي نلتها لم تكن لتنفيرك طرائد الوالي ... يا هذا، ان لك امرأة عم اعرابية خبيثة ، اخت ابليس ، مالت بها السن ، احسبها هي اصل الشر . اما زوجتك فما اظنها راضية ان تستعيض عنك بالوالي . هي مثلك تأبى ان تستبدل بك . فرمقه نصر في تعجب وقال له :

ـ يظهر انك على علم . فكيف عرفت هذا كله ؟

ـ فهل تظن ، اذن ، اننا لم نعلم بسهرتك ليلة امس في خيمة الوالي ، وبما دار في تلك السهرة ؟

ـ لست عن هذا اسألك ، يا اخي .

وكان نصر يودّ فوراً ان ينتقل الى سؤال الحارس كيف جاز للوالي ان يعقد لنفسه على امرأة معقود عليها لرجل آخر . لكنه خشي ان يسمع منه ان سعاداً قد طلقته . فهو ان سمع ذلك انهار انهياراً .

اجابه الحارس : انا ادري عن اي شيء تسأل ، فاسمع . لا شك انك تعرف فاتكاً وانت من حيّه ـ فاتكاً الذي قتله على باب المخيم سهمُ راعٍ من رعاتكم . لقد سبق له ان حدثنا عن الاعرابية امرأة عمك ، وعن زوجتك الصبية الحسناء ، وعما يظنه من ان الوالي يطمع فيها . وكنا نحن في حديث هذا الوالي الذي يتحلّب ريقه للنساء فيتأخر في اخراج ارزاقنا الينا . ولقد اقبلت العجوز امرأة عمك مرة ، في سَحَر الليلة التي قتل فيها فاتك ، تريد ان تقابل الوالي ، فيسرت لها المقابلة ـ وانا الحارس ليلتئذ ـ بعد ان وعدتني بالمكافأة . ثم انصرفت فعادت تصحبها فتاة فارعة رائعة الجمال . ثم لم يلبث ان أعلن قيـــام هذا العرس الليلة . وانت

تقول ان الفتاة هي زوجتك . ولقد سمعت في النهار من خيمة الوالي صيحة ناحبة طويلة ، لا اظنها صدرت الا عن زوجتك ساعة صدر الامر بزفافها الى الوالي . ثم علامَ استمر سجنك انت ؟ هل استمر الا لانك ابيت ان تترك زوجتك للوالي وتستعيض عنها باخرى من جواريه ؟ اسمع ، يا اخي . انني استروحنا روائح مكيدة خبيثة لاول لحظة . وها هي المكيدة تنجلي . والاعرابية العجوز كذبت عليّ حين وعدتني بالمكافأة . وهذا الوالي لا ينفك يبذّر ما هو حقّنا من مال في ولائم زواجه وملاذّه . فثق اني نصير لك في هذه المحنة . سأقطع عنك الحبال اذا شئت ، وستشاء . فتمضي حتى تأتي دمشق ، فترفع دعواك الى الخليفة معاوية بن ابي سفيان . واني لأرجو لك فوزاً . فاذا فزت فاذكر اخاك عامراً بالخير .

هنا لم يبق نصر يستطيع سكوتاً عن اخطر شيء يجب ان يتأكد منه . قال للحارس :

ـ شكراً لك على مروءتك ، يا اخي عامر . لكن كيف تسمع دعواي اذا كانت سعاد قد طلقتني .

ـ يتحدثون بان امرأتك قد جُنّت ، فلا اصدق انها طلقتك . وهب انها طلقتك فلا معنى لهذا الطلاق وقد حصل باغراء او بتهديد . فلنسرع . يجب ان لا نفرّط بالوقت .

واستلّ الحارس من وسطه سكيناً راح يقطع بها الحبال عن نصر .

ونصر يبتسم في سره لهذه الطمأنينة التي هبطت على قلبه حين سمع كلام الحارس .

ثم فكر في ملتمس لم يكن له بد من التماسه . فكّر طويلاً ، ثم قال بعد جهد :

ــ ان الطريق الى دمشق بعيدة . فهل لديك ، يا اخي عامر ، بعض الزاد تزوّدني به ؟

ــ لدي دراهم يسيرة اعطيك اياها . ودسّ الحارس يده في جيبه . فأطلع ما فيه وسلمه الى نصر ، واستأنف كلامه : لو كان معي مال أوفر لما امسكته عنك . لكن هيهات ، وهذا الوالي ... بقي هذا الشواء ، لا تنس ان تأخذه . وامض الساعة ، امض ، فارفع الدعوى على ابن ام الحكم لعلك تسترد زوجتك . اما نحن فلعلنا نظفر ، بعد هذه الفضيحة ، بعزله عنا . ولا تنس ان تأخذ هذه الحبال ايضاً لئلا توجد هنا فيرى انها مقطوعة بسكين .

قال نصر وقد لف الحبال وحمل الشواء : لو اعطيتني هذه السكين ايضاً لزدت لك شكراً . لا بد لي من شيء من سلاح . وتذكر ، نادماً ، انه دفن قوسه ونشابه في موضع لا وصول له اليه الساعة ، فدفع اليه عامر بسكينه . فطوقه نصر باحدى ذراعيه معانقاً ، وقال له :

ــ كنت اظنكم جميعاً ، معشر الجنود ، عبيداً لابن ام الحكم ، أتخم ضمائركم حتى ماتت على يديه . غير اني علمت اليوم انكم مظلومون . وان الدولة تضرب المظلومين بالمظلومين . وأنا ، يا أخي ، لا أيأس من النخوة والخير في المظلومين ...

لكن قل لي ، يا عامر : كيف تصنع اذا طلبني الوالي غداً فوجد اني تمكنت من الفرار ؟ أفلا تقع عليك الشبهة ؟

اجابه الحارس مربّتاً على كتفيه : امضِ ، امضِ ، لا عليك . في مثل هذه الليلة التي ذهـل فيها الجميع ابتهاجاً بعرس الوالي ، نستطيع ان نعتذر عن هربك بألف عذر .

فاندفع نصر من الخيمة التي كانت سجنه ، مارقاً مروق السهم . اندفع شبحاً سرّياً غامضاً ، فاتحد باشباح الليل وتوارى . وكان وهو يهبّ في سعيه هبوب الريح ، لا يتمالك ان يلتفت وراءه فيشاهد ضوء النيران في مخيم الامير ، وتأتيه اصوات العرس — هذا العرس الذي بات صداه مناحة في ضلوعه .

الفصل العاشر

غلب سعداً الاعياء في هـذا الموضع الذي وضعت فيه من خيمة الوالي الخاصة ، فانتبهت بأن اغمضت اجفانها مهدودة القوى . رقدت في الحبال التي ربطت بها مخافة ان تهرب . وكان رقادها متخماً بالرؤى المتشابكة التي لا اول لها ولا آخر .

على انها قبيل الصباح عرضت لها فجأة ، في غمار هذه اللوحة المشوشة من الأحلام ، رؤيا واضحة منفردة . ابصرت نفسهـا في فلاة في ليل مظلم ، ونصر الى جانبهـا نحسه يتنفس في وجهها . فطوقته بذراعيها واسبلت اجفانها الطويلة الاهداب تنتظر قبلتـه وتتوقع ان يبادرها بكلمة فتسأله معاتبة : هل طلقها حقاً ، وكيف يجد نفسه مع هذه الرومية البضة الشقراء التي رضي بهـا زوجة جديدة ؟ فيقسم عندئذ مغرورق العينين بالدموع ان ذلك دسّ ملفق وبهتان مصنوع ... الا ان سعداً لم تشعر ، عـلى حرارة انتظارها ، بشفتي نصر مستا شفتيها . بلى ، شعرت بذراعيها تفرغان ، ففتحت عينيها فلم تر نصراً . فلمسته بذراعيهـا فمست بهما شخصاً ادركت فوراً انه غيره . فارتدّت مذعورة . واذا بذلك الشخص يلوّح لها في ظلام الليل بعقد من جوهر مضيء ، ويدنو مصطنعاً اللطف ليجعل العقد في عنقها . فصدته عنها . ومسّ الجوهر اصابعها فاذا هو جمر محرق ، لا جوهر ! وشاءت ان تصيح فلم تستطع الى

اخراج صوتها اللاصق بسقف حلقها سبيلاً . ونضح جبينها عرقاً . واستيقظت يابسة اللسان تشعر في حلقها بطعم رديء .

في هذه اللحظة ، كان الامير ابن ام الحكم يعود الى خيمته بعد ان شارك الجميع في عرسه حتى همّ الصباح بالبزوغ ، مجتهداً ان يدلّ على ما عنده من روح شعبيـــة ! وقد ابى ان يسقي الخمر ليثبت مدى تعلقه بالدين ! فما عسى ان يريد الناس منه اكثر من ذلك ؟

وكان ابن امّ الحكم وهو يمشي – بل يتدحرج – الى خيمته بجسمه المثقل أكلاً ، لا يشتهي شيئاً كأنْ يخلو الى هذه الزوجة الجديدة التي جنّت ، على ان جنونها – كما قالت امها – طاريء وقتي سرعان ما يزول .

قال لها وقد توسّم الرعب في حدقتي عينيهـــا حين ابصرته يمشي نحوها بوجهه السمين كأنه متورّم ، وبطنه المسترخي كأنه ضرف حُمّل فوق ما يسع من ماء :

– لم يكن بودّي ان تكون عليك هذه الحبال ، يا سعاد . لكنك عاندت عنـــاداً ليس له موجب . واظنك قد ثبتّ الى رشدك ، فما اجدرني بتقطيع هذه الحبال عنك . ولقد قصدت لك الحرير والذهب لا الحبال .

فلم تقل شيئاً . وانصرف هو الى انمام وليمة الليلة بما بقي ناقصاً . فهذا الطعـــام الذي يكظّ جوفه لا بد له من نقع . واخرج من مخبأ في الخيمة كوزاً جرع منه سراً ما تحاشى ان يجرعه جهراً . ثم مدّ به الى سعاد فحوّلت عنه وجهها مشمئزة .

– لا تشربي ان كنت لا تشائين . انا اشرب عنك ، يا صغيرتي .

وضحك كمن اعجبته نكتة بارعة فريدة . وافرغ الكوز وحذفه الى ناحية . ثم مال على سعاد ، وسمع انفاسها تسري مزدحمة ، واختلج لطيب رائحتها . فشاعت في كيانه رغبة تدعوه الى تقبيلها .

وادركت غايته فقالت ، وهي تكبت امتعاضها تحت انفاسه المثقلة برائحة الخمر ودسم الطعام :

ـ أترضى ، ايها الامير ، ان يقال انك قبلتني وانا مقيدة ؟

وقهقهت في وجهه قهقهة وقحة ما كان يتصور ان تصدر عن مثل هذه البنيّة . وراح يقطع عنها الحبال وبيده ارتعاشة عصبية .

فما احست بنفسها حرة طليقة حتى وثبت على قدميها فابتعدت عنه نافرة نفرة الغزال في خفة ورشاقة ، مستمرة في تلك القهقهة الوقحة التي استفزته . فتبعها فعثر بكوز الخمر الفارغ ، واوشك أن ينهار كعمود ضخم . فلجّت هي في قهقهتها . وتبخرت من رأسه النشوة ، فأطرق مذهولاً صابراً عليها حتى تفرغ من هذه النوبة الجنونية من الضحك الصاعق ، ثم قال لها وبطنه يرتجّ لشدة انفعاله :

ـ سعاد ! انك امرأتي . وانا والٍ من ولاة الدولة ، فهل علمت ذلك ؟

وافرغ في نبرة صوته رنة وعيد . وقلب بيده السكين التي قطع بها حبالها . لكن ذلك لم يُجد شيئاً سوى ان احدث لها انفجار نوبة مستأنفة من القهقهة رفّت لديها اجفانه رفيف من طُرفت عيناه بلطم قاس .

ورجع الى الملاينة والملاطفة . قال لها وكأنه يستأنف الكلام

من حيث انقطع :

– ثم هل عرفت ، يا صغيرتي ، ما عندي لك في خزائني من عقود جوهر تليق بهذا العنق الغزاليّ العاجيّ ؟

فوجمت سعاد بغتة وتذكرت الرؤيا . وظن ابن ام الحكم وجومها انتظاراً ، فأسرع الى صندوق في الخيمة مرصع بلآلىء البحرين ، اطلع منه عقد جوهر مضيء .

فصرخت : ابعد عني هذا الجمر الواهج المحرق .

قال وهو يتعجب لهذه التصورات التي تمر برأسها :

– ان كنت لا تحبين الجوهر فخذي الذهب .

وعاد فجاء بين يديه بحفنة من دنانير ذهبية : دماء استقطرت من شرايين الرعية ، وجمدت إلا ما تبعث به من بريق . فمدّت سعاد يدها فتناولت ديناراً وضعته بين اسنانها وعضت عليه . ثم تفلته ارضاً ، وبصقت في اثره كأنما تنظف فمها من طعم كريه – وقالت :

– ايؤكل هذا ؟ فأية حاجة لي فيه ؟

واستأنفت قهقهتها المريبة وابن ام الحكم يعجب من اين تغرف هذا الضحك الرنان المتحدي كله ، ويقول في سره :

– قد تكون حقاً مجنونة .

وهنا طرق سمعه صوت خطى تقترب من الخيمة . فأمال عنقه وأعار اذنه . فارتفع ، بعد لحظة ، صوت الحارس عامر يقول من على باب الخيمة :

– مولاي ! مولاي ! هذا البدوي الذي كان عندنا معتقلاً قد اختفى دون ان يترك اثراً .

صاح ابن ام الحكم وقد ازدادت رقبته غلظاً في الحال :

ـ ويحكم ! وكيف اختفى ؟ واين ؟

ـ لا ادري ، يا مولاي . كان في موضعه ليلة امس حين حملت اليه العشاء . واظن ان عرسكم المبارك شغلنا جميعاً ، فانهمكنا في طيباته ومباهجه حتى استطاع صاحبٌ لهذا البدوي ، من اهل هذا الحي ، ان يندس الى خيمته فيفك حباله فيهرب .

وسعاد تصغي خلال قهقهتها . فتعلم هذه المرة ، بيقين لا تداخله ذرّة من شك ، ان نصراً كان لا يزال سجين الوالي ، فهو بالتالي لم يطلقها ولم يبعها بمال ولم يلتمس عفواً ليهرب . واستمرت مغرقة في قهقهتها ، إلا انها اصبحت قهقهة تفضح برغمها ما تفجّر في قلبها من ينبوع غبطة . فلوّح ابن ام الحكم في وجهها بسكّينه التي لمعت شفرتها لمعاناً تكسر على البريق المتحدّي من عينيها . وهرول الوالي الضخم مغبرّ اللون الى خارج الخيمة ـ وقد خف فجأة ثقل جسمه ـ ليرى كيف استطاع هذا اللعين نصر ان يفلت . وفكرت سعاد في ان تغادر الخيمة هي ايضاً فتفر لاحقة بنصر . غير انها شاهدت رجال ابن ام الحكم يضطربون في المخيم اضطراباً لا سبيل معه الى الخروج دون ان يلحظها لاحظ فيمسك بها . فمكثت في مكانها وقد انفتحت لها كوّة امل تشرف منها على ساحة الخلاص . اصبحت واثقة بان نصراً لم يفر إلا ليعود فينقذها .

وتصوّرته ضارباً في عرض البوادي بشملته وعباءته وجسمه الرشيق الحركات . ورافقته بعين الخيال يسلك المخارم الخفية خشية ان يقع في قبضة الوالي مرة اخرى . على انها لم تستطع ان تتصور ابن يقصد واي عمل ينويه .

... لفظ ابن ام الحكم على حاشيته وخدمه ، ساعة خرج اليهم من الخيمة ، كلاماً شديد الغلظة ، ولحيته ترتقص ارتقاصاً مع سفلى فكيه التي بدت كأنها توشك ان تنخلع . فقد اصيب حقاً بجرح بليغ في صميم كبريائه التي غُرست في طبعـــه وزكّاها منصب الولاية . فلم يجد الى التشفّي سبيلاً سوى ان يقول لخدمه وحاشيته ما ارتجله عليه الغضب والقهر . فكيف يبدي رغبته في بدوية زرية يعلقها هذا التمليق فتمتنع عليه مجنونة او متذرّعة بالجنون ؟ ثم كيف يلقي القبض على بدوي زري ، فيهرب برغم ما شده به من حبال وبرغم هؤلاء الرجال الذين يعج بهم مخيمه .

وقال له احد الفرسان اذ هو يرغي ويزبد : أتأمر ، يا مولاي ، بان نطارده فنأتيك به حياً او ميتاً ؟

فصاح به ابن ام الحكم محتقن الوجه وعروق الرقبة :

ــ ألا تخرس ، ويحك ، يا ابن الفاعلة ؟ غفلتم عنه حتى هرب ، وجئتم بعد ساعات تتطوعون لمطاردته ، كأن هذه الصحراء رقعة كف .

فهمس الحارس عامر في اذن رفيق له : والله انها شتيمة في موضعها استحقها هذا الفارس ، لكن من فم غير فم هذا الوالي . ترى متى يؤخر ولائم زواجه ويخرج لنا ارزاقنا ؟

اجابه رفيقه بهمس غير مسموع ايضاً : ولمَ لا نقولها له جهراً ؟

وفيما يتداول الجنديان بهذا الهمس غير المسموع ، ولا يفهمان بأن الحق انما يحتاج الى من يجرؤ على المناداة به ، ارتفع صوت اجش وقح وقاحة الباطل ، صوت العجوز أم سعاد تقول :

ــ وما عسى ان يفعل هذا الكلب نصر ؟ فليمض حيث شاء ؟

أفلم تصبح سعاد زوجة مولانا ؟

فانتهرها ابن ام الحكم وعيناه تقدحان الشرر . وأمرها بان تأخذ شيخها فتغرب بوجهه ووجهها من حضرته .

فاسترخت حنكا العجوز وصدعت بالامر بذلك الشعور العبوديّ الذليل الذي ما يلبث ان يتحول الى شبـــه غريزة تجعل من صاحبها آلة كالآلة تتحرك بزرّ .

والحق ان ابن ام الحكم لم يكن غاضباً ذلك الغضب كله ، مقهوراً ذلك القهر كله ، للجرح الذي اصـــابه في صميم كبريائه وحسب . بل انما خشي العاقبة الوخيمة . فهو ادرى النـاس بانه قد اصطنع لنفسه اعـداء كثراً بمسلكه في الولاية . ولا بد ان يلاقي نصر بعض هؤلاء الاعداء فيحملوه على رفع الدعوى الى الخليفة معاوية . والدعوى صريحة . فالرجل لم يطلّق امرأته ، وقد غصبه اياها غصباً . ومعاوية الداهية اذا رأى فرصة يبيّض بهـا صحيفته لدى الرعية ، على حساب احد الولاة ، اسرع الى اغتنامها .

فكيف يفعل ؟ كيف يفعل ابن ام الحكم ؟

وهدأت ثورته . وراح ينقّل فيما حوله نظراً ذاهلاً . رأى آثار العرس التي ما تنفك ماثلة شاهدة . فهنا نار كانت موقدة للزينة . وكان لسان لهيبها يندلع ليلة امس احمر لعوباً في الهواء . وهنا نار كانت موقدة تحت قدر عظيمة وسقت باللحم . وهنا عُلّقت احدى الذبائح المكتنزة . فماذا بقيَ من هذا كله ؟ رمادٌ وسواد ! فهل يكون هذا آخر عرس قبل الفضيحة القاضية ؟ وهل يتسنى له بعد اليوم ان يتزوج وهو والٍ ، فيختار من شاء من الصبايا الناضرات ويدفع المهور الغالية ، وينفق عن سعة وفيض مما يجتلب من هذا

الضرع السخيّ ، ضرع الولاية برغم انها ولاية عجفاء على البادية .

إن في هذا كله مجالاً للتفكير . وأحس ابن ام الحكم بان هذه الدنيا ، دنيا النعم ، التي شادها مع ولايته توشك ان تنهار به . واي شيء يكون ابن ام الحكم وامثاله اذا عزلوا عن الولايات وجرّدوا من الوظائف ؟

فيجب ان يحال بين نصر والوصول الى معاوية اذا امكن الامر . لكن فوق ذلك يجب ... وهنا امسك ابن ام الحكم ، فلم يشأ ان يعلن حتى لنفسه التدبير الذي عزم عليه .

ثم امر ، ولا تزال في صوته نبرة الغيظ ، بان يتأهب الجميع للرحيل ، فقد انتهى الصيد .

وقال عامر حارس المخيم الذي اطلق نصراً :

ـ طبعاً انتهى الصيد ، تزوج الامير ... باحدى الطرائد !

الفصل الحادي عشر

بعد ان انطلق نصر من معتقله ، لم تكد تنقطع عنه اصوات العرس وتغيب عنه النيران حتى ازدادت وحشته في هـذا الليل الذي يلفّه ، وضغط على نفسه تشاؤم ثقيل . فأين هو من دمشق التي يقصدها ؟ وما عدّته ليطوي هذه الشقة البعيدة المدى ؟ سكين وشيء من شواء ... ثم كيف السبيل الى المثول بين يدي الخليفة معاوية بن ابي سفيان بعد اذ يصل الى دمشق ؟ وهل يسكت ابن ام الحكم عن فراره فلا يرسل في طلبه فرسانه ؟

وطفقت ترنّ في اذنه الاصداء وتتمثل امام عينيه الاشباح ، ومعظمها اصداء خيل تضرب الارض بحوافرها واشباح فرسان يهتزون به . فيضع يده على مقبض هذه السكين التي منحه إياهـا الحدّاد عامر ، عازماً على غمسها في اول مهاجم يتصدى له . وربما انه من بعض الشعاب اصوات الذئاب تعوي مـن جوع فطفت في اذنيه على اصداء حوافر الخيل التي توهمها تعدو في اثره ، وقال لنفسه كمن استأنس بهذه الاصوات الوحشية : لا ، لست اخشاك ، ايها الذئاب ، بمقدار مـا اخشى ابن ام الحكم وزبانيتـــه . فأنت لا تقتلين إلا لعلة واحدة هي الجوع !

وذلك كله حثه على الانطلاق السريـع حتى اغتسل جسمه بما دفق من عرق ، وحتى برقت له تباشير الصبح . فرأى عـلى بعض

البعد بقعة اشبه بالواحة في هذا البسيط الجديب من رمل . ورأى اشجار نخيل ، وخياماً منصوبة . فخيل اليه ان تعبه وظمأه قد مثلا له سراباً خادعاً . لكن اين الوقت الآن من ميعاد السراب ، وقد علم نصر ان السراب يكون ظهراً في معمعان القيظ حين يلهث الرمل بشبه لهب يتوهج شعاعاً رقيقاً في الهواء .

واذن فليعرج على هذه الواحة يصيب فيها قسطاً من ماء وطعام وهنيهة من راحة ، ثم يستأنف المسير . غير انه ما كاد يعزم حتى استفاق فيه الحذر الذي يصبح طبيعة ثانية في كل هارب يعرف انه مطلوب . وعسى لو يصادف انساناً يستنبىء منه نبأ هذا المكان ومن فيه ، فلا يكون انصرافه اليه انصراف الطريدة الى فخ . لكن ليس في مرمى نظره حوله بشرٌ يستطيع ان يتلقى منه مثل هذا النبأ . فلا بد اذن من شيء من المغامرة مع الحذر . وسعى نصر شطر الواحة مفتوح المنخرين يتشمم الهواء كأنما يستطيع ان ينشق فيه رائحة الخطر ان كان ثمة من خطر ...

الى ان اصبح على كثب من الموضع . فظهر له رجل ما ان لمح نصراً حتى شخص اليه يتفرس فيه تفرس مستريب . ثم تقدم اليه وقد تمهل نصر ، هو الآخر ، في مشيته فقال له بصوت لا يخلو من جفوة :

— عم صباحاً ... ونظر الى الرجل نظرة متأمل . وجمدت عيناه على وجهه . فبدا له ان هذه القسمات التي يطالعها الساعة امامه تستفيق في ذاكرته من غفوة طويلة في زاوية منحذفة . وكذلك بدا الرجل وهو يتفحص وجه نصر . ثم التمعت في عينيه وشفتيه

ابتسامة ، فقال :

ـ اكبر ظني أننا تعارفنا من قبل في موضع ما .

اجابه نصر :

اذا صحّت ذاكرتي فأنت صاحب الناقـــة والبعير اللذين شردا يوماً فلحقا بقطيع يرعاه فتى مـــن بني عذرة ، ثم جئت تطلبهما ، لكن عدت وقد تركتهما منحة للفتى .

قال الرجل : لم تخطىء . وانت هو الراعي نصر !

صاح نصر : اخي عروة ! يا للمصادفة السعيدة !

وتعانقا عناق الاخوين .

وقال عروة وهو يأخذ بيد نصر فيدخل به الواحة .

ـ عذراً ، يا اخي ، اذا كنت قابلتك بارتياب . فنحن هنا لا نخلص من جندي يزورنا من جنود هذا الوالي المستهتر حتى نتعرض لزيارة اعرابي سارق ، او ممهد لغزو يأتينا ليلاً .

اجابه نصر : ثق اني لا هـذا ولا ذاك . وانمـا ساقتني اليك ، كما قلت ، مصادفة سعيدة وانا ساع في شأن من شؤوني .

قال عروة :

ـ اعرفك ، يا نصر ، فتىً كريماً . ولم يخطر لي قط ان ارميك بشبهة ... تعالَ ، تعال الى ماء بارد وبعض طعام ، ثم حدثني ما فعل بك الزمان .

ومشى الرجلان الى خيمة من الخيام ، فشرب نصر وأكل وهو يفكر في هذا التوفيق الذي لقيه على غير انتظار ، ويحس بالامل يتعاظم في نفسه ، ويفكر بهذه السمعة السيئة التي ازدوج بها اسم ابن ام الحكم .

وأعاد عليه عروة القول بعد ان فرغ من طعام أكله على عجلة :

ـ والآن ، حدثني ما فعل بك الزمان يا نصر ، هل تزوجت فتاتك التي احببت .

اجابه نصر :

ـ تزوجتها . ثم حدث ما يحزن ويغضب .

فردّ عليه عروة وقد اتسعت عيناه :

ـ وماذا حدث ؟ هل افلح في كيده لك ذلك الفتى الجلف ؟

ففهم نصر انه انما يعني فاتكاً . فأجابه :

ـ لا ! ذلك غاب من الطريق الى الابد .

ـ واذن ؟

ـ كادت لي امرأة عمي وهذا الوالي الذي ذكرته فوصفته بالمستهتر . خرج الى الصيد في نواحينا ، فذهبت العجوز الدنيئة لمقابلته بابنتها . فما وقعت عليها عينه حتى ارادها لنفسه . جلدني وسجنني بحجة انني نفّرت طرائد الصيد من طريقه ، ثم سعى في ان يرضيني بالمال ويزوجني جارية من جواريه ، سبيّة رومية مسكينة . فأبيت . فأمسكني في سجنه ، وعقد لنفسه على امرأتي . وانا الساعة هارب من سجني بعد ان حضرت ليلة امس ... عرسه .

وغصّ نصر بآخر كلمة .

قال عروة وقد كزّ باسنانه :

ـ يا للفاجر ! فماذا تنوي ان تفعل الآن ؟

ـ انا في الطريق الى دمشق اشكوه الى الخليفة معاوية ابن ابي سفيان .

ـ نعم ما تصنع ! وربما لم يكن معاوية افضل من واليه . لكنك تفضح ابن ام الحكم على كل حال . فاذا لم ينصفك منه معاوية فضحته هو الآخر .

قال نصر وقد امتقع لونه لخاطر مر في ذهنه :

ـ شيء واحد اخافه : ان تكون امرأتي رضيت بطلاقي نزولاً على اغراء او تهديد .

ـ مثل هذا الطلاق لا يكون له معنى .

فقال نصر وقد راجع نفسه :

ـ بل ارى الطلاق احتمالاً بعيداً جداً . واسمع ان امرأتي تصطنع الجنون دفعاً للوالي عنها . والآن يجب ان لا ابطيء عن المسير .

قال عروة :

ـ اجل ، يجب ان تسرع . لكني أراك بلا زاد ولا مطيّة . ودمشق ليست من هنا على رمية حجر . فقد تهلك جوعاً وظمأً قبل وصولك اليها على رجليك في اسابيع . انتظرني اذن قليلاً .

ومضى عروة هنيهة ، ثم عاد بجواد ضليع ، عليه خرج وزاد . ثم قال لنصر :

ـ هبة لك مني ، يا اخي . فاقبله قبولك النـــاقة والبعير . واركبه الى دمشق واجهده في الجري فانه يطيق .

فغمرت الابتسامة شفتي نصر وترقرقت في عينيه الدموع ، لا يدري ما يصنع الا ان يقول لهذا الرجل الاريحيّ ابلغ كلمة يقولها امرؤ في مثل هذا الموقف :

ـ شكراً !

فأجابه عروة :

– كلا ، لا شكر . فحقٌ أنك تسعى في شأن يهمك ، لكن الشكوى على ابن ام الحكم تهمنا جميعا . فنحن هنا في هذه الواحة نكابد من ضرائبه وتطاول جنوده وتقاعسه عن حمايتنا من الغزو شراً شديداً . لقد حلمت ، يا اخي ، حلماً لهذه الصحراء التي نتيه فيها ، شئت إخراجـه الى الوجود في حيث لا يستحيل الامر . سألت نفسي : علامَ لا نتعلم عيش الحضر فهو خير من عيش البدو ، خير من هذا التشرد الابدي في طلب المـاء والعشب . وكنت شهدت على حواشي الصحراء – مما يلي جهة دمشق – بيوتاً تشاد عند بئر من عطاء الطبيعة او عند مياه من الشتاء تحقن في احواض كبيرة ، فيجتمع الناس عليهـا في قرية صغيرة يخصب فيهـا الزرع ويدرّ الضرع . وفهمت ان معاوية لا يكتم رضاه عن مثل هذا التحضر . فأقبلت عـلى الماء هنـا ، وأهله عشيرتي ، فقلت لهم : نصلح ماءنا ونختزن معه شيئاً من مطر الشتاء فنسقي ونزرع ونتعهد المواشي مقيمين لا نحط الرحال ولا نشدّها . وننهج سبيلا كسبيل سمي عروة ابن الورد وصعاليكه اذ كان يصيب كل واحد منهم نصيباً مما يحصّلونه جميعاً . إلا اننا لن نغزو غزواً شأن عروة وصعاليكه . بل نستنبت رزق الارض ونحتلب خير الضرع . فقالت لي العشيرة : ما اغرب ما ارتأيت ! او مـا تدري ان النخلة مربط الذل ؟ فأنت مكرَهٌ على البقاء الى جانبها ، لا تستطيع ذهاباً عن ضيم ينالك وظلم ينزل بك . فهزأت بعقولهم ، ووفقت الى اقناعهم . فماذا كان ؟ جاءنا هذا الفاجر ابن ام الحكم لا يشبع من ضريبة ، ولا تكف عنا جنوده ، ولا يحوطنا من غزو من يطمع في رزقنـا . فاذا رجعنا اليه قال لنا : « اعجب مما انتم عليـه . فكيف تكونون

ضيعة ثم لا تكونون إقطاعاً لاحد الامراء ؟ » فهذا ما يبلغه آخر فهم الرجل . إما ان تصورنا بدواً رُحّلاً نعاني قسوة الصحراء او عبيد ارض نعاني سوط سيد اقطاع ، وإما ان لا يتصورنا شيئاً . غير انا نأبى ان نبقى في حدود ما يرسمه لنا تصوّر هذا الفدم الغبي . وارجو ان نفلح ، وإلا فنكون قد زرعنا بذوراً للمستقبل ... لكن عفوك . احسب اني ابطأت بك وأطلت عليك الحديث في امر ما اظنه يعنيك جداً . فامضِ الآن على بركة الله .

قال نصر وهو ينظر في عيني محدثه ، وقد عظم به إعجابه كيف فتق ذهنه هذا الابداع :

— ومن زعم لك ان الامر لا يعنيني جداً ؟ سأسرع الى دمشق كما تقول ، فاطلب لي ان اوفق . وعسى ان نخلص من ابن ام الحكم . وسترى اني اعود اليكم فأمكث معكم في هذه الواحة اعمل عملكم ، اذا رضيتم بي .

— وكيف لا نرضى بك ؟ وارجو ان تكون يومئذ قد فزت بامرأتك .

وتعانق الرجلان عناقاً طويلاً .

ثم وثب نصر الى ظهر الجواد ولكزه فانطلق به . وتلفت يلوّح بيده ، مودعاً صاحبه آخر الوداع ، فسرّه مشهد لم يتنبّه له من قبل : مشهد الصبية الصغار وقد خرجوا صباحاً من الخيام فوقفوا يشيّعون هذا الفارس الغريب بنظرات من عيون سوداء برّاقة ، واسنان تنحسر عنها الشفاه بيضاء بياض الحليب النقي . شدّ ما تفاءل نصر خيراً بهؤلاء الاطفال . ثم لم يملك ان انتقل انتقالة بالفكر الى ذلك الحارس الذي قطع عنه حباله ، ثم الى هذا الرجل

الاريحي الذي وهب له الجواد . فأحس انه ليس فريداً وحيداً في كفاح هـذا الامير الظـالم . وتمتم في سرّه : سبحان الله كيف يجمع الظلاّم الناس على انفسهم !

وطار الجواد — كأنما ركبت في ارجله الاجنحة ! — ينهب به المسافات المترامية بين البـادية ودمشق . ونصر لا يقف الا على ماء او عشب ريثما يسقى ويقوت جواده ، ولا يتمهل الا ليتناول لقيمات من زاده يسد بها بعض جوعه .

وكان نصر — وهو خارجٌ من رَحِم الصحراء قـاصدُ دمشق لاول مرة — يحس في قلبه خفقاناً حلواً كلما لقي في الطريق انساناً ، فاستنبأه، فقال له : انك تدنو من دمشق، فواصل سعيك في هذا الصوب الذي تسعى فيه. وقد سمع نصر العجائب عن دمشق. ففيها نهر غزير المـاء ينفجر فيجري حـلالاً زلالاً للشاربين من حيوان وانسان وشجر ونبات . وربما جُرّت منه مياه الى الاحياء فتدفقت على السبل بين البيوت ، وفي باحات القصور . وفي دمشق ايضـاً بساتين الغوطة التي تكسو بقاعـاً واسعة متصلة من الارض ، فتجعل منها رقعة واحدة خضراء تترامى على مـدى سَفَر العين . ولقد سمع نصر ببدوي قبله اشرف على دمشق فلما رآها هتف : هذه هي الجنة ! ثم قفل راجعاً وهو يقول : لا تُدخل الجنة مرتين ... خَشي ان يُحرم جنة السماء اذا دخل جنة الارض . وابتسم نصر لذكرى هذا البدوي . اما هو فسيدخل دمشق الجنـة ، وسيستردّ سعاد التي هي جنته ، ولن يصدّق ان دخول الجنات في الارض يمنع من دخول جنة السماء .

وجاء مساء استشعر فيه نصر ان الانسام اخـذت تسحب على

محيّـــاه ذيولاً مبتلة بالماء ، وان الهواء حوله تفوح منه روائح الخضرة .

ثم ما لبث ان أطل على قبـاب ذاهبة في الجو ، واغصان مورقة ناضرة . وسمع الجداول تنصبّ مصوّتة كأنها تثرثر وتتشاحن في حديث خطير . فعلم انه في دمشق ! وما كاد يجتاز باب الجابية — هذا الباب الذي فتحته المدينة الى جهة البادية — حتى اقفله الحارس وراءه مع تكاثف ظلمة المساء .

قال نصر لرجل مـــارّ في الطريق بعد ان نزل عن جواده ووقف الى ناحية يفكر فيما يصنع :

— ألا تداني ، يا اخا العرب ، على قصر امير المؤمنين ؟

فنظر الرجل الى هذا الاعرابي في ثيابه الزريّة . ثم نظر الى الجواد الجميل الذي يمسك عنانه بيده . فخطر اول ما خطر لهذا الدمشقي ان يعقد صفقة تجارية صغيرة يفوز فيها بربح على حساب سذاجة الاعرابي . قال له :

— هذا الجواد ملكك ، يا اخا العرب ؟

اجاب نصر وقد ارتاب للسؤال المفاجيء :

— نعم هو ملكي . ولمَ يعنيك هذا ؟

قال الدمشقي :

— فهل تبيعه ؟ اني طالما اشتقت ان اقتني جواداً عربياً من البادية .

قال نصر غبّ هنيهة من تفكير لم يكن فيه اقل خبثاً من الدمشي :

— لا ابيع الجواد من سواك اذا احتجت الى بيعه . لكني

سألتك ان تدلني على قصر امير المؤمنين فما سمعت منك جواباً .

قال الدمشقي وما انفكّ منصرف الذهن الى الصفقة التجارية :

– قصر امير المؤمنين ، قصر الخضراء ، لا يخطئه احـــد ... أراك غريباً في البلد ، وافهم انك تطلب المثول بين يدي الخليفة ، وسيطول عليك الوقت قبل ان تظفر بالدخول عليه . ولست – على ما أراك – في حالة تمكنك من الانفاق . فانصح لك ان تبيع هذا الجواد لرجل مثلي صاحب ذمة ودين ، وإلا أكلك تجار دمشق .

اجابه نصر : الامر كما تقول . واذا دللتني على مكانك ، قصدتك ، فبعتك الجواد يوم احتاج الى بيعه . لكن قل لي بالله : كيف السبيل الى مقـابلة امير المؤمنين ، فاني مـا جئت الا لاقـابله في شأن ملحّ .

اجـابه الدمشقي ، وعينه على الجواد الذي وقف بليلَ الغرّة بالعرق ، فاتحاً منخريه للهواء الرقيق :

– اني انصح لك ان لا تؤجل بيعه . وقد تقصدني يوم تضطر الى بيعه ، فلا تجدني ، او لا تراني مستعداً للشراء .

قال نصر ، وهو يكبت ابتسامـة همّت بالارتسام على شفتيه لشدة اصرار هذا التاجر :

– نبّئني ، يا عبد الله ، كيف استطيع مقابلة امير المؤمنين ، وسأعتبر منّتك هذه داخلة في ثمن الجواد ، فلا آخـذ منك يوم احتاج الى بيعه الا ما يكون ميسّراً عندك من مال .

فبرقت عينـا الدمشقي وجرع الريق الذي تحلّب في فمه ، ثم قال لنصر :

– هيّا نمشِ معاً .

فسار نصر يتلّ جواده ، وسار الدمشقي ، في زقاق .

قال نصر :

ـ وهل يسكن الخليفة في مثل هذا الحي ؟

اجابه الدمشقيّ :

ـ كلا ، ولكني ادلّك على مكاني لتأتيني يوم بيع الجواد !

اجابه نصر وقد غلبته الابتسامة هذه المرة ، فتعلقت بشفتيه ساخرة :

ـ حسبتك ستدلني على هذا القصر الذي سميته قصر الخضراء ، وترشدني الى طريق اقابل منه أمير المؤمنين .

ودار نصر عازماً على الرجوع . فقال له الدمشقي وقد شعر بانه لن يستطيع استدراج الاعرابي الى ابعد من ذلك :

ـ عد ، عد ، يا اخا العرب . ومكاني على قيد خطوات من هنا . لقد اصبحت اذن تعرفه . إسأل عن ابي فلان ... اما امير المؤمنين فان له يوماً يقعد فيه للناس . وما عليك حين تأتي القصر الا ان تطلب الاذن لك من الحجّاب .

فشكر له نصر هذا الارشاد ، وتركه . وكانت آخر كلمة زوّده بها الدمشقي :

ـ لا تنسَ وعدك ببيع الحصان لي ، يا اخا العرب . ان وعد الحر دين .

فأجابه نصر قاذفاً بكلماته وراء ظهره :

ـ هو ذاك ، فاطمئن ، اطمئن !

ونام نصر ، تلك الليلة ، وجواده تحت القمر والنجوم . فما بزغ الفجر وطفق الناس يضطربون في الشوارع حتى كان اعرابيّ ،

يقود جواداً ، يستوقف بعض السابلة يسألهم عن قصر الخضراء . ولم يكن الاهتداء الى قصر معاوية صعباً . وشخص نصر لدى الباب الخارجي يوميء الى الحارس الذي تحوّل نحوه ببطء وزهو ، وقلب نصر يخفق خفوق من يواجه موقفاً يعلّق عليه الامل ولا يستبعد الخيبة .

الفصل الثاني عشر

تقدم الحارس من نصر وعلى كتفه رمح مسنون طويل ، والى وسطه سيف مرصّع القبضة في غمده . فأثبت عينيه ، تحت حاجبيه الكثيفين ، في وجه هذا الاعرابي الشاحب الزريّ اللباس . ثم قال له وفي صوته نبرة انتهار :

ـ ما شأنك ؟

اجابه نصر وقد احب ان يستوثق من شيء :

ـ قل لي بالله عليك هل انت دمشقيّ ؟

فلم يملك الحارس ان يبتسم لهذا السؤال الذي كشف له فوراً عما لا بد ان يكون هذا الاعرابي عاناه في دمشق . اجابه :

ـ كلا ! بل رجل من عرب اليمن .

فاستأنس بذلك نصر ، واطمأن الى ابتسامة الحارس ، وقال له بعد تنهّدة ارتياح :

ـ وانا مثلك ، اصلي من عرب اليمن . أعرابيّ ضعيف من بني عذرة من البادية . لحقتني ظلامة ممن لا قدرة لي عليه . فلما ضاقت بي الوجوه قصدت امير المؤمنين ارفع اليه شكواي . وقد لقيت اصحاب مروءة شجعوني وأعانوني . فهذا الجواد الذي تراه خلفي منحة منحنيها رجل لأطوي به المسافة بين البادية ودمشق . واتفق لي ان عرفت حارساً مثلك اسدى اليّ معروفاً عظيماً . بقيَ ان

اجد عندك مثل هذه المروءة ، وما اظنني الا واجدها ، فتيسّر لي الدخول على الخليفة . وعسى ان اشفي على يديك جرحاً في قلبي .

قال الحارس وقد تسربت الى نفسه الرقة لحديث هذا الاعرابي ، واستيقظ فضوله لمعرفة ظلامته :

ـ لو زدتني علماً ، يا اخا العرب ، بما جئت تسعى من اجله ... لكن ما دمت من بني عذرة ، وما دمت ذكرت جرحاً في قلبك ، فيخيل الي ان في الامر حكاية امرأة وحب .

اجابه نصر وقد دهش :

ـ انك صادق الفراسة ، يا اخي . والمرأة امرأتي وانا احبها ، وهي تحبني ، الا ان يكون غيّرها ما حدث .

قال الحارس وهو يشعر انه وقع على حكاية يتسلى بها عن هذا الضجر الذي يلازمه في وقفته الدائمة على باب القصر :

ـ وماذا الذي حدث ؟

ـ غصبني الوالي امرأتي . استدرجتها اليه امها طمعاً بالمال . وحبسني الوالي . وعقد لنفسه عليها وأولم عرساً عظيماً .

ردّ عليه الحارس :

ـ فاذا كانت امرأتك تغيّرت عليك فلا يبقى معنى لشكواك .

ـ كلا ! عندي يقين انها ما زالت على العهد . بل سمعت انها تظاهرت بالجنون لتدفع عنها الوالي .

قال الحارس وقد ارتسمت على شفتيه ، هذه المرة ، ابتسامة كرهها نصر وانقبض لها صدره :

ـ وهل صدقت ؟ واية امرأة لا تؤثر والياً على مثلك . فخذ

مالاً بها ، ان استطعت ، واسدل عليها ستراً من نسيان . وبعد ، فما المرأة ؟ شيء لساعة في فراش ؟ لم ألق رجلاً الا رأى معي هذا الرأي .

فأجابه نصر متجلّداً على هذه الخناجر التي مزقت نفسه مع كلمات الحارس :

ـ اولئك ، يا اخي ، لا يحبون حباً . ولكن يريدون ـ كالذي يبصق ـ ان يتخلصوا من شيء احتقن فيهم . او هم في خير الاحوال يطلبون ولداً .

ثم تحوّل نصر لينصرف وهو فاقد الرجاء الذي عقده على هذا الرجل بعد ان دار الحديث هذا المدار .

فقال له الحارس وقد أنّبه ضميره لشعوره انه آلم جداً هذا الاعرابي الذي لم يتهيأ ـ في زعمه ـ لمذهب سمت به اليه عيشة الحضر وعودته اياه حياة الجندية :

ـ رويدك ، رويدك ، يا هذا . ما عمل امرأتك ـ حين اعتصمت بالجنون ـ غريباً على نساء بني عذرة . وما عملك انت ـ حين كددت بين البادية ودمشق ـ غريباً عليكم معشر العذريين .

فوقف نصر يتجلى في قسمات محياه عرفان عميق للجميل ، كأنما اسدى اليه الحارس بتلك الكلمات منّة لا تقوّم بثمن .

واستطرد الحارس يقول :

ـ تريد ان تقابل امير المؤمنين بنفسك ، وليس لك ـ فيما ارى ـ احد يوصل اليه دعواك . فاعلم ، اذن ، ان له خطة يسلكها في عمل نهاره . فبعد ان يتناول الغداء الاصغر في الصباح ، ويتحدث حتى تصعد الشمس في قبة الفلك ، يأمر غلامه فيخرج له

الكرسيّ الى المسجد ، فيجلس عليه مسند الظهر الى المقصورة ، ويأذن لعامة الناس بالدخول . فادخل انت ساعتئذ واعرض شكواك . واني انصح لك ان تفتتح كلامك بأبيات من شعر ان كنت تنظمه – فان الخليفة يحب الشعر من افواه بني البادية .

– وهل تدلني على المسجد ، يا اخي ؟

– هو هنا قريب عند القصر . وكثير مثلك يأتونه في هذه الساعة . فلا تهتم .

فشكر نصر الحارس شكراً حاراً . وانصرف عنه يقود جواده بانتظار الشمس ان تصعد في قبة الفلك ، وبانتظار القريحة ان تلبيه بأبيات من الشعر .

وكانت ساعة من العراك بين نصر والاوزان والقوافي ، وهو مشغول البال بهذه الكرة النارية التي لم ينفك يتلفّت اليها سابحة صعوداً سبحاً بطيئاً في سماء دمشق . ولم يستطع ، على شدّة انفعاله ، ان يقتطع من معدن قريحته سوى اربعة ابيات . ثم ادرك ان الميعاد زحمه ، فأسرع يطلب المسجد . ورأى جمهوراً غفيراً يندفعون اندفاعه ، فاذا هم مثله يطلبون المسجد . فاطمأن الى انه لن يخطىء موضعه . وطفق يستعيد في سره هذه الابيات التي نظمها على استعجال ليفتتح بها خطابه للخليفة . لكن لم يطل به الامر في سعيه الحثيث حتى وجد نفسه على باب المسجد . وكأنه لم يفطن من قبل الى هذا الجواد الذي يجره وراءه ، فما يصنع به ؟ ربطه الى ناحية غير آبه بما يصيبه . ثم دس نفسه في الجمهور ، يشق الصفوف الى داخل المسجد فعل ذاهل العقل . فوكزه رجل اشار الى نعليه المقطعتين وأمره بخلعهما وغسل رجليه ... ما اطولها

من قصة ! — تمتم نصر في سره . ونزع نعليه ، ثم انكفأ نحو ماء يجري قريباً من عتبة المسجد ، فنقع به قدميه المغبرتين نقعة خفيفة ، وعاد يزاحم الناس الى الصف الاول ونعلاه تحت إبطه .

من ذا ؟ تساءل نصر في نفسه ، وقد حطت عيناه على حرس مسلحين يحيطون بكهل ملتحٍ ، مهيب ، بدين ، كبير البطن ، في محياه آثار وسامة ، ترسل عيناه نظرات هادئة نافذة ، تنقلت على الوجوه حتى استقرت طويلا على وجه نصر وغرابة هيئته .

فرأى نصر ان يجمع جأشه فيتكلم .

قال كالمبغوت :

— السلام على امير المؤمنين .

ولحظ معاوية اثر البغتة في وجه الاعرابي وصوته ، فحرّك شفتيه بردّ للسلام رقيق . وكان معاوية ، لدهائه ، شديد الحرص على ان يستشعر منه الناس ، اذا لقوه ، أنساً ولياناً وعطفاً .

فانشأ نصر ينشده ، لا يدري هل يتذكر الابيات كلها ام تفوته ، قال :

معاويَ ، يا ذا الحلم والفضل والعقل
وذا البرّ والاحسان والجود والبذل
اتيتك لما ضاق في الارض مسلكي
وأُنكرت مما قد اصيب به عقلي
ففرّج رعاك الله عني فانني
لقيت الذي لم يلقه أحد قبلي
وخذلي ، هداك الله ، حقي من الذي
رماني بسهمٍ كان اهونه قتلي !

لقد تذكر نصر الابيات كلها فاحسن تذكرها . ولقد ارعش صوته في بدء الابيات ثم استقر جهورياً تموج بأصدائه جنبات المسجد . وتهامس الناس بجرأة هذا الاعرابي ، واعجبهم صفاء لهجته ، الا متزمتين في الدين كرهوا ان يجوز انشاد الشعر في المسجد .

وفيما راح نصر يمسح جبينه الذي رشح بالعرق ، قال له معاوية :

ـ ولكنك لمّحت ، يا اعرابي ، ولم تصرّح .

فاندفع نصر يقص على امير المؤمنين قصته بتفصيل : كيف احب ابنة عمه سعاداً واحبته في مضارب بني عذرة في البادية ، فتزوجا ، وامها غير راضية لفقره وطمعها في المهر العظيم . ثم كيف اقبل الوالي ابن ام الحكم يصطاد في نواحي الحي ، فما وقع نظره على سعاد بتدبير من امها ، العجوز الماكرة ، حتى اشتهاها لنفسه . ثم كيف اتهمه الوالي زوراً وبهتاناً بتنفير الطرائد فاعتقله وجلده حتى الموت ، وسجنه في الخيمة . ثم كيف استدعاه وشاء ان يذهله عن نفسه بالخمر ويغره بالمال ويزوجه عوض امرأته جارية منكودة الحظ من سبايا الروم . ثم كيف رده ابن ام الحكم الى السجن وعقد لنفسه على سعاد واقام عرساً ملؤه البذخ والابّهة ، مع ان نصراً لم يطلق سعاداً ولن يطلقها الا بطلاق روحه . ثم كيف تيسّر له ان يفرّ من المعتقل فيأتي دمشق يعرض شكواه على الخليفة .

وقد اصغى اليه معاوية وعلائم الاهتمام تتجلى في قسمات محيّاه . فليست هذه بالشكوى الوحيدة التي يسمعها من سيرة ابن ام الحكم ـ رجل سريع اليد الى تناول سوطه واستعماله ، مبالغ

في جباية الضرائب وانفاقها من اصحاب المواشي ، واهل الزراعة وقليل ما هم في الصحراء ، مبطيء في اخراج العطـــاء لجنوده ، نهم في النساء . والدولة ، الى خطر البيزنطيين في الخارج ، تعجّ باحزاب المعـارضة في الداخل : شيعة في العراق ، وزبيريون متربصون في الحجـاز ، وهذه البادية التي يقوم ابن ام الحكم على ولايتها ارض خصبة للخوارج ...

وطال صمت معـــاوية . ونصر ينتظر على جمر ، والنـــاس ينتظرون . فلما حرك شفتيه للكلام ، كان كل ما قاله :

ـ وما اسمك ، يا اعرابي ؟

ـ نصر يا مولاي ، من بني عذرة .

ـ امضِ الآن ولا تحاول ان تبرح دمشق .

فخرج نصر ، لم يشف غليلاً ، وهو يفكر في ما عسى ان يكون قصد الخليفة بهذا الامر الغـامض . ومضى يطلب حارس القصر الذي لقيه في الصباح ، فلعله يعينه على فهم مـا عجز عن فهمه . واوشك نصر ، لانشغال باله ، ان يذهل عن جواده الذي تركه مربوطاً الى ناحية في خارج المسجد .

قال له الحارس حين اتاه :

ـ لا عليك ، يا اعرابي ، الا اذا كنت لفّقت دعواك تلفيقاً . إخال معاوية سيهتم لشكواك بنفسه . فلازم دمشق كما امرك ، وتردد عليّ كل يوم ، فأنبئك بما يجدّ ويبلغ مسامعي .

الفصل الثالث عشر

وضع معاوية التاج على رأسه (زيّ قدسه من اباطرة البيزنطيين) ، ومشى الى البهو الكبير في قصر الخضراء ، فجلس على السرير (عادة اخرى تلقّنها من بيزنطية) وأمر بان يؤذن للناس بالدخول على قدر منازلهم . ففاض المجلس بالوافدين ، ومعاوية يرد عليهم السلام ويتصفّح وجوههم حتى تبيّن وجهاً فرزدقياً سميناً عراه الامتقاع ساعة وقعت عليه عينه — وجهاً عرَف في صاحبه واليَه على البادية ابن ام الحكم ، فأومأ اليه إيماءة خفيّة بان يُدنيَ منه مقعده . فأطاع الوالي وقد زاد امتقاعه واشتد اضطرابه ... ذلك انه كان ادرى اهل المجلس جميعاً بان الخليفة لم يحرص على تقريب مقعده منه تكريماً او تعظيماً !

وانصرف ابن ابي سفيان الى واليه يمشهد من الجميع ، فقال له وهو يبتسم تلك الابتسامة الداهية التي تعيد القلق طمأنينة :

— انك لم تبطيء في الحضور .

فأجابه ابن ام الحكم :

— كيف ابطيء وقد دعاني امير المؤمنين ؟

— وهل حضر معك احد سواك ؟

— احضرت مَن فهمت مِن كتاب امير المؤمنين ان حضوره واجب .

ـ اهلا وسهلا بك ، يا ابن ام الحكم . فكيف خلّفت البادية ؟

ـ في خير ودعاء لامير المؤمنين .

ـ ولك ايضاً ؟

ـ الدعاء لي مضمّن في الدعاء لامير المؤمنين .

ـ ارجو ان يصح ما تقول .

واهل المجلس جميعاً يتلقون باسماعهم هذا الحديث المتوتر ، يجري في عبارات مقتضبة ، تنطوي على إلغاز خفيّ ولا تشفّ عن انشراح صدر الخليفة لواليه ، او عن ارتياح الوالي بين يدي الخليفة .

وأشتد امتقاع ابن ام الحكم لدى العبارة الاخيرة ، وقد ارسلها معاوية في لهجة تدل على سخرية مبطّنة . وقال الوالي وهو شبه مستفزّ :

ـ عفو امير المؤمنين ، فما كنت احسب ان شكوى يلفقها أعرابي مهمَل تنال من مثلي وانا الوالي الامين ، وتترك هذا الاثر في نفسك ، وانت اعلم بهؤلاء الاعراب الذين كلفتني الولاية عليهم ، ما اكثر ما ينسجون من تهم في سبيل شيء نسترضيهم به ، وما اكثر ما يستعملهم اعداء الدولة من خوارج وشيعة وزبيريين للتشيع على الولاة المخلصين والتشويش والمشاغبة في الرعية .

قال له معاوية معتصماً بهدوء ظاهر :

اما وقد حضرت يا ابن ام الحكم واستعجلت اثارة هذا الموضوع ، في هذا المجلس ، فعل من يعتقد البراءة في نفسه ولا يخشى ضعف دفاعه ، فليكن لك ما شئت ، ولنتجاوز الساعة عن هذا الاعرابي الذي استهنت شأنه وقضيته . اني اسألك عن هذه

الضرائب التي لا تمسّ جبايتها وتبديدها في ولائم الزواج والبلاذ . واسألك عن هذا السوط الذي لا تنفكّ تستعمله على الناس بيدك او بايدي جنودك كأنك لم تسمع بقول عمر بن الخطاب : لا تضربوا العرب فتخرجوهم او تذلوهم ، وكأنك لم تسمع بقولي : لا اضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا اضع سوطي حيث يكفيني لساني . ثم اسألك عن جنودك ، هل تدفع لهم ارزاقهم في مواقيتها ؟ واسألك عن اولئك النفر من البدو الذين بدأت تطيب لهم حياة الحرث في قرى حول آبار الماء واحواضه يجعلون منها واحات في الصحراء ، هل تخفف عليهم من ضرائبك ، وهل تكفيهم شرّ جنودك ، وهل تقيهم من سطو من يطمعون في غزوهم ؟

فبهت ابن ام الحكم ، ينظر في الارض ، تضايقه هذه العين الساهرة يتناول بها صاحبها كل افق ، وتحرجه هذه اليد الطويلة الباع يمدها صاحبها متجسسة باصابعها الخفية كل غور . ولكن ابن ام الحكم ابى ان يخضع لهذا التجريد من سلاحه ، فقال لمعاوية يعيد الكرّة :

ــ اعداء الدولة كثر ، يا امير المؤمنين ، خوارج وشيعة وزبيريون . وهم لا همّ لهم الا ان يشتعوا على الولاة .

اجابه معاوية بذلك الصوت الذي لا يفقد رزانته وهدوءه مهما يشتد بصاحبه الانفعال :

ــ حجة واهنه لا يرضاها معاوية ، يا ابن ام الحكم ...

ان الخوارج والشيعة والزبيريين ليتقولون الاشياء على الدولة . لكن ما شغلك انت ؟ ان تسلك السلوك الذي يعينهم فيما يتقولون

ويشتمون ، ثم تأتيني معتذراً بان اعداء الدولة اخترعوا هذا وذاك عليك ؟ عوفيت ، عوفيت ! ما اسهل هذا الخط من الدفاع الذي اقمته لنفسك . تطيل يدك على اموال الناس ، وتتهالك على غصب النساء ، وتعمد فوراً الى سجنك وسوطك ، ثم يكون كل من كره منك عدوانك شيعياً او خارجياً او زبيرياً . وتتعنت في التحامل عليه وقهره حتى لا يرى مذهباً له إلا ان يصير شيعياً او خارجياً او زبيرياً . ثم تقول فعل من أوتي القدرة على التنبؤ بالغيب : انظروا ، كنت على حق ! كلا ، يا ابن ام الحكم ، كلا ! ان اعداءنا يجورون . ولكنك اذا كنت جائراً في نفسك وسيرتك ، فمحض جورهم لن يجعل منك عادلاً ولا فاضلاً ، ولن يهيء لك عذراً ، ولن يعفيك من تبعة . هل تفهم ؟.. والآن قم فجئني بمن احضرت معك ممن له علاقة بقضية صاحبك الاعرابي ، فاني عزمت على النظر فيها بنفسي . وعد مسرعاً .

فنهض ابن ام الحكم متثاقلاً ، برغم انه كان لا يشتهي شيئاً كأن يفلت من هذا القفص الخانق . وخرج مرتبك الخطى ، يتقاوى امام اهل المجلس الذين اوشك ان يعثر بنظراتهم ، ولم يبق منهم من لم يلمح بصيصاً على جبهة الوالي — بصيص قطرات من عرق كالتي تبعثها الحمّى في المريض .

ثم توجه معاوية الى اهل مجلسه فقال لهم :

— حضور ابن ام الحكم ، والينا على البادية ، أجدّ لنا عملاً مفاجئاً لم يكن في الحسبان . فانصرفوا اليوم .

فما عَبرَت هنيهة حتى تفرّق اهل المجلس ، في صمت ضاغط تخلله همسات وأرجل تنسحبُ وئيدة على الارض .

ودعا معاوية بغلام من خاصته امره بان يمضي الى صاحب شرطته فيقول له : ان امير المؤمنين يطلب منك ان تأتيه فوراً بالاعرابي نصر من بني عذرة ، وهو الاعرابي الذي اوصاك بان تجعل عينك عليه في دمشق .

وتلت هنيهة خلا فيها الداهية معاوية بن ابي سفيان الى نفسه . وعاد يستعرض ما قاله الساعة لابن ام الحكم . ترى ، ألم يغلظ له ويشتد في القسوة عليه ؟

ولم تكن تفوت معاوية ، على استباحته الوسائل والاساليب كلها في سبيل توطيد دولته الجديدة ، ان يرجع الى نفسه في احيان كثيرة فيلومها او يرضى عنها .

وتساءل الداهية في سره : أفلا استحق انا مثل هذا التعنيف الذي اخذت به ابن ام الحكم ؟ وبعد ، فماذا يفعل ابن ام الحكم ؟ يتطاول على النساء ، وإني اتطاول عليهن . ويبتز الضرائب ، وإني أبتزها . وينفق بذخاً ، وإني أبذخ . ويبطىء في عطاء الجنود ، وربما وقع لي مثل ذلك . ويضرب بالسوط ويسجن ، وإني لا استغني عن هذين ، بل قد أدسّ السم لمن ارى ضرورة صرفه من الوجود ...

وتمهّل الفكر لحظة بمعاوية . ثم ما اسرع ما قال لنفسه : غير ان بيني وبين هذا الوالي فرقاً . فاني ما تغيب عن عيني ، في كل عمل آتيه ، مصلحة هذه الدولة الجديدة التي شئتها جديدة للرعية يختلف بها يومهم وغدهم عن امسهم في ظل بداوة جاهلة قذرة ، وظل نير من الفرس والروم . ومع ذلك فكيف ابني هذه الدولة الجديدة ؟ اريدها ملكاً وراثياً لابني وسلالتي . واستغلّ جداً ما خلّف القديم من رذائل : ارشو بالمال ، وابذر التفرقة

بالدسّ وايقاظ نعرات الحسد ، واقتل بالسمّ . وها اني أتساءل : هل يسوغ ، بل هل يمكن تشييد ما قصدته من جديد ، بهذه الوسائل والاساليب القديمة الملوثة ؟

لكن علامة الاستفهام الكبيرة التي رسمها هذا التساؤل الشجاع في رأس معاوية قد بقيت بلا جواب يشفي . انها مأساة اصيلة في التاريخ ، حتى يخلو التاريخ من المآسي .

وهنا عاد ابن ام الحكم فدخل على الداهية الاموي بصبية وانية تظهر في قسمات محياها اماثر انخطاف ابله ، تتبعها عجوز كأن وجهها لصفاقته وتجعّده وسواده جلد جُفّف في الشمس فتقلص ، ورجلان تتقلب اعينهما الدقيقة في رأسيهما كالجرذ الذي اطلّ من وكره يسرق شيئاً ، وتضطرب شفاههما كأنهما يرددان كلاماً ملقناً حفظاه على ظهر قلب .

ثم اقبل على الاثر حاجب يدفع بنصر الى حضرة امير المؤمنين . ولم يكن صعباً على صاحب الشرطة ان يعثر بهذا الاعرابي ، فقد كاد يلازم الحارس على باب القصر ليله ونهاره يستطلعه هل جدّ من جديد .

واوشك نصر حين دخل بهو قصر الخضراء ، ان لا يسلم على معاوية ، بل اوشك ان لا يراه جالساً على سريره يقلب نظراته كأنه يسبر اغواراً خفية وفوق رأسه التاج الثقيل . ان وجهاً لاح لنصر فغطى في عينيه على كل الوجوه . كان هو وجه سعاد ، وقد نحف وشحب وارتسم فيه تحت العينين خطّان قوسيان بلون الكحل الكامد . فاصفرّ نصر اصفراراً اختطف مـاء الحياة من محياه . وزادت سعـاد على اصفرارها اصفراراً . وقـد امّحى من

وجهها ذلك الطابع ، طابع البله المصطنع ، واضاءت عيناها بشرارة ، لكنها انطفأت سريعاً ليحل محلها وجوم مقفر عميق . ثم أدار نصر نظراته فتبيّن وجه الوالي ابن ام الحكم ، ووجه امرأة عمه ، ثم طالع وجهين غريبين لم يسبق له ان شاهدهما .

وبادره معاوية بالسؤال : يا اعرابي ، أهـذا هو الوالي ابن ام الحكم خصمك ؟ أهذه هي الفتاة سعـاد ابنة عمك ؟ وهل هذه هي امها ؟

فردّ نصر بالايجاب إيماءً برأسه . واين يجد الكلمات وهي لاصقة بحلقه ؟

فتابع معاوية : وما دعواك ؟

قال نصر وهو يجهد جهده للكلام : حدثتك الحديث ، يا امير المؤمنين ، يوم المسجد . ان سعاداً زوجتي . وقد كرهت امها ان تكون ابنتهـا زوجتي على فقري . ثم اقبل واليك ابن ام الحكم فحبسني بتهمة ملفقة ، وجلدني ، وسعى ان يغريني بالمال ويزوجني . فلما أبيت ، عقد لنفسه على سعاد بمسعى من امها ، وامسكني في سجنه ، مع ان سعاداً زوجتي كما قلت .

فالتفت معاوية الى ابن ام الحكم الذي استجمع جأشه ليبدو غير مبال ولا مكترث ، وقال له :

ـ ألا تدفع عن نفسك التهمة ؟

اجاب ابن ام الحكم بجواب المطمئن الواثق ببراءته مما يرمى به :

ـ مولاي ، هذا الاعرابي كاذب . وحين جاءني كتابك يأمرني بما يأمرني به ، ايقنت ان الاعرابي قد خلص اليك بعـد فراره ليشكوني . لكن لم اهتم لعلمي بأنني لم اخالف اصلا من الاصول .

لقد طلق هذا الاعرابي امرأته قبل ان عقدت عليهـــا لنفسي ، وعندي على ذلك شاهدان .

واشار ابن ام الحكم الى الرجلين الغريبين اللذين لم يعرفهما نصر ساعة دخل . فما اسرع ما بدرت شفاه الرجلين معاً بما لقّنا من كلام كأنهما ببغاوان في قفص واحد ... قالا : نعم طلق هذا الاعرابي زوجته في حضورنا . وصدق مولانا الوالي ، صدق .

فبغت نصر وترب وجهه . واطلقت سعاد صرخة ممزقة . واذن ، فصحيح انه رضي بطلاقها .

ولكن نصراً تغلب فوراً على بغتته فقال :

ـ اقسم ، يا امير المؤمنين ، انني اجهل هذين الرجلين ، فلم ارَ لهما وجهاً قبل اليوم . فمن هما ؟

فسكتت « احدى الببغاوين » لانها لم تعرف ما تقول بعـد الذي قالت . وانفردت الببغاء الاخرى تتكلم من انف يخنخن :

ـ ويحك ، يا اعرابي ، أما تستحي ربك ؟ تكذّب مثلي رجلاً يقوم ليله للعبادة ، وقـد شهـدت انا وصاحبي طلاقك لامرأتك ، ورأيتك تقبض مالاً من مولانا الوالي .

أفعم صدر نصر غضباً ، واحتقن محياه ، وجحظت مقلتـاه كمن عُقِد على عنقه حبل شديد ، وصاح :

ـ او يصعب على واليك ، يا امير المؤمنين ، ان يرشو هذين الرجلين فيحوّل عبادتهما عن الله الى المال ويشهدا له بالزور ؟ لكن لي شاهد صدق غيرهما ، هو جندي من جنود واليك كان يأتيني بالطعام وانا سجين الخيمة . وهو الذي أنبأني ان سعاداً جُنّت لما كرهت من زواج الوالي بها . وهو الذي قطع عني القيود ليـلة

اقام الوالي عرسه على امرأتي ، فخرجت ساعياً اليك لتنصفني . اسم هذا الجندي عامر ، صورته محفوظة في لوح صدري . فأطلب ان يؤتى به ليشهد بما يعلم . ولي ايضاً غير هـذا الجندي عامر شاهدة صدق هي جارية واليك . سبيّة رومية منكودة الحظ ، ادخلها على مجلسنا ونحن معاً في خيمته ، واراد بالخمر والمـال والتهديد ان يزوجنيها لاطلق له امرأتي . فأطلب ان تحمل اليك لتشهد لي بما تعرف .

وكان معاوية يسترق النظر الى ابن ام الحكم ، فيما نصر يتكلم ، فلحظ كيف شحب وجه واليه عند ذكر الجندي عامر والجارية الرومية ، وقرأ في هذا الشحوب الحقيقة التي لا مجال معها لريب .

ولم يملك نصر ان تغرورق بالدموع عيناه اللتان همتا بالوثوب من رأسه . وكانت دموعه أفصح لدى سعاد من كل ما يمكن ان يقوله لسانه . وزادتها اقتناعاً ثياب نصر القديمة ، الثيـاب التي عرفته فيها وقد طال عليها القدم والارهاق حتى باخت وتهلهلت . فصاحت :

— كلا ، كلا ، يا امير المؤمنين . لست أصدق انه طلقني . لقد انبأتني امي وانبأني الوالي انه طلقني لمال دفع اليه وتزوج امرأة غيري . ولست اشك في انهم اوهموه بدوره انني رضيت طلاقه افتياناً مني بان اصبح زوجة الوالي . تلك مكيدة سافلة ، يا امير المؤمنين . عزلوني عنه وعزلوه عني . وحاولوا تسميم نفسي بالكذب عليه . وحاولوا تسميم نفسه بالكذب عليّ . لئن يكن طلقني حقاً وقبض مالاً ، وعدل عني الى امرأة سواي ، فعلامَ بقيت ثيابـه

القديمة هي اياها ، وكيف لم تظهر عليه آثار نعمة ؟ ثم لمـــاذا لم يواجهني واليك وامي بهذين الشاهدين قبل اليوم ليشهدا ان نصراً طلقني امامهما في غيبة مني ، مع أني ، يا امير المؤمنين ، ما زلت اصطنع الجنون ، منذ ان فُصل بيني وبين نصر وتزوجني واليك ، لكي لا يمسني هذا الرجل الغاصب ولكي لا تهنأ امي التاجرة بما شاءت ان تقبضه ثمنـــاً لي . وعندي شاهد ، هو والدي الشيخ الضعيف ، على أني لم ارغب يومـاً في زواج واليك ، بل بكيت بسواقي من دموع ، فمر بوالدي يحضر .

وراح معاوية يتأمل الصبيـة البدوية وهي تتفجر في خطابهـــا تفجراً . أعجبته شفتاها وقد لاحتا كأنهما قليتا على اللهب ، وسحرته مقلتاها بتوقد صفائهما وطول ما يظللهما من اهداب ، وأحس ان السهد والهمّ والاضطهاد قد قنّعت طلعتها بقناع من التعب والعياء لو زال لأشرق جمال هذه المرأة بما لا عهد بـــه لانسان . وحارَ كيف يستند الى أسّ يفصل به في هذه الدعوى العجيبة . ومـــا كان يعوزه لو شاء فوراً ان يستند الى أسّ الضمير . لكن خاطرة ، بل رغبة ، مرّت بباله فقال يوجه الخطاب الى سعاد ويبتسم :

– يا سعاد ، ان والينا ابن ام الحكم تؤيده امك وهذان الرجلان ، يزعم زعماً وانت ونصر تزعمان زعماً آخر . ويطول بنا الامر اذا رحنا نثبت اي الزعمين اصح واصدق . فليس بالسهل استقدام والدك الشيخ ليشهد لك . وليس بالسهل استقـدام هذا الجندي الذي سماه نصر وهذه الجارية التي ذكرها . فانا معاوية ابن ابي سفيان اعتبرك الساعة امرأة لا يقيدها عقد زواج مـا . فاذا مددت اليك يدي خاطباً فهل تقبلينني بعلاً ؟ ولن تكوني

اول اعرابية تزوجتها وأنجبت . فهذه ميسون بنت بجدل الكلبية ، وهذا ابنها يزيد قرة عيني ووارثي من بعدي .

لكن قبل ان تجيب سعاد انبرى ابن ام الحكم فهتف :

– ذلك كان قصدي والله ، يا امير المؤمنين . انني استكثرت هذه البنية الحسناء على اعرابي زري ، فعقدت عليها لنفسي عقداً صُورياً ، وما اردت الا ان اتخلى لك عنها اذا اعجبتك .

فنظر اليه معاوية نظرة فاهمة ، نافذة ، تعري دخيلة النفس ، ولم يجبْه بكلمة على هذا النفاق . فالسكوت عن النفاق فيما بين الساسة قانون لياقة ولباقة في معظم الاحيـــان ... ولاول مرت سرت خلجات من حياة في وجه ام سعاد . ولقد كان وجهها يرتدي قناع موت لهـــذا المجرى الذي سلكته الامور . غير انها حين سمعت الخليفة نفسه يقترح على ابنتها الزواج تهللت وآمنت بمـــا تقوله الحكمة : لا تكرهوا شيئاً لعله خير لكم . وهتفت : معاذ الله ان تخالف ابنتي مشيئة امير المؤمنين .

ولم يستطع نصر السكوت وقـــد احس بقلبه كأنه كرة تتدحرج في هوة ، فقال :

لا تجعلنيَ والامثال تضرب بي كالمستجير من الرمضاء بالنار!

لكن معاوية لم يكن يهمه الا ان يسمع ما ستنطق به الفتاة . فلما رآها تعصر عينيها من الدمع قال لها مأخوذاً بالعجب :

– وما بك ، يا بنيّة .

اجابته :«سيقتلني هذا الجمال الذي يُطمع فيّ كل من رآني حتى امير المؤمنين . لم يبق الا الله عز جلاله ينقذني ، لكن احكامه مؤجلة التنفيذ .

قال لها معاوية وهو يبتسم لبراعة العبارة :

ـ افهم ، اذن ، انك لا تقبلينني بعـلاً ، برغم ان عندي لك القصور والحرير والجواهر والجاه .

ـ هو قلبي لا يقبل !

ـ ولمَ ؟

ـ لان الحب عنده اقوى من قصورك وحريرك وجواهرك وجاهك .

ـ وترفضين ابن ام الحكم ؟

ـ سبق ان رفضته ... ان نصراً زوجي لا زوج لي إلاّه .

ودارت نحو نصر وامسكت نفسها ان تطير اليه . ودار نصر نحوها وامسك نفسه ان يطير اليها . ثم ـ وكأنهما افتُلعـا من مكانيهما ! ـ اندفعا فتلاقيا في عناق صامت طويل .

ونظر معاوية الى ابن ام الحكم فقال له :

ـ لا يثقل عليك . رفضتني كما رفضتك ... دهاءٌ شاء به معاوية ان لا يجرح واليه كما جرحه من قبل في نهـاره . ووجد الفرصة مؤاتية ليُبلِـغ ابن ام الحكم ، على الاثر ، خـبراً آخر على الهامش ، فقال له : وأرى الاجدر بك بعد اليوم ان لا تعود الى البادية ، فيتحدث الناس بان أعرابية كرهتك زوجـاً . فدار البهو بابن ام الحكم ورنّح به ترنيحاً ومعاوية يبتسم له ابتسامته الماكرة .

ولم يلحظ احد الا بعد وقت ان ام سعاد تميد هي الاخرى في وقفتها وتشحب كمن يوشك ان يُغمى عليـه . فقد صعدت صعوداً حتى صاهرت الوالي ، وكادت تصاهر امير المؤمنين . يا لهـا

من ذروة شاهقة ذاهبة في عنان السماء ! ثم ها هي تسقط عنها سقوطاً في فراغ سحيق . فُسخ زواج ابنتها بالوالي . وعُزل الوالي . وما صاهرت الخليفة . وقام بينها وبين ابنتها ونصر جدار من الكره الى الابد . لو بقي لها حتى زوجها الشيخ الضعيف ! لكنه مات قهراً وكتمت موته .

واسرعت سعاد الى امها تسندها ان تنهار ارضاً ، وقالت لمعاوية :

— سيدي ، لو تأخذ هذه العجوز فتضعها في مطبخك .

فضحك معاوية حتى بدت نواجذه ...

وامر نصراً وسعاداً ان ينصرفا بعد ان امر لهما بمال لم يقبل منه نصر الا ديناراً . واستبقى معاوية ام سعاد . أتراه وافق ان يجعلها في مطبخه ؟ واستبقى ابنَ ام الحكم ، وما ندري هل وجد له وظيفة اخرى في مطبخ الدولة ؟

وساعة خرج نصر ، ومعه سعاد ، الى عتبة القصر ، لقي الحارس فدس في جيبه الدينار . ثم طلب جواده حيث ربطه على مرأى من عين الحارس ، وحمل عليه سعاداً ، ثم امتطاه ولكزه .

قال لها وفي صوته نبرة المازح : خفت ان اكون اشتريت هذا الجواد مما بذله لي ابن ام الحكم في سبيل طلاقك ؟ لا تخافي . ان المظلوم يرزق حليفاً . لقد وهبه لي رجل يكره ابن ام الحكم . وهو الرجل الذي ترك لي الناقة والبعير قبل زواجنا ، إن كنت تذكرين . ونحن ماضون اليه في مكانه ، في واحة اقامها في الصحراء ، فنبشره بفوزنا وعزل الوالي ، ونعيش معه ومع رهطه في خدمة الزرع والضرع .

ومرت دقائق صمت حتى عبر بهما الجواد تخوم المدينة ودخلا بين البساتين . فترجل نصر وانزل سعاداً على ذراع ، وهو يقبض على عنان الجواد باليد الاخرى .

وكانت اوراق الحور الخضراء عند مجاري الميـــاه تضطرب اضطراباً خفيفاً في تنهدات النسيم . والمياه الجارية تزقزق زقزقة رقيقة .

ثم ما أسرع مـــا غابت اصداء اضطراب الاوراق ، وتوارى رجع زقزقات المياه ، في هذه القبلة الـتي الصقت شفتين مشتاقتين بشفتين مشتاقتين ، واغمضت عينين والهتين على عينين والهتين !

وتراخت يد نصر عن عنان الجواد الذي تقبض عليه . وسرح الجواد يرعى العشب ابتعاداً عما لا يعنيه ...

خاتمة

اوغل نصر وسعاد في البادية لينصرفا الى هـذه الواحة التي ارتأى عروة صاحب نصر ان يستنبت خضرتها من حبّات الرمال ويجعلها مثالاً لانهاض الحياة في الصحراء من طور الى طور .

لكن لم تلبث الواحة ان تلاشت كما يتلاشى سراب ترقرق حيناً ، فاضمحلت معها احلام عروة كما تضمحل احلام من يسبقون التاريخ او يبطئون عنه ، وبقيت البداوة عنصر تأخر وجمود في العرب الى يوم يلغبها العلم والحرية .

كذلك انطوى كل اثر لنصر او سعاد ، فكأنهما ضاعا في غمار البادية كما تضيع حبتان من رمل تعصف بهما الريح . حتى حديث الناس بقصة هذين الزوجين الحبيبين ما لبث حتى انقطع ، لان قصة اخرى احتلت المجالس ومـلأت الافواه والاسماع وشغلت شرطة الدولة الاموية بتتبع ناشريها ومذيعيها . تلك قصة يزيد بن معاوية وارينب بنت اسحاق وزوجها عبد الله بن سلاّم .

وما عسى ان تبلغ من الاهمية قصة بدوي وبدوية ، مثل نصر وسعاد ، فتثبت امام قصة يكون ابطالها يزيد بن الخليفة وعبد الله ابن سلاّم القرشي والحسين ابن الامام علي وارينب بنت اسحاق ...

وكانت ليلة من ليالي الكوفة — وهي يومئذ من زواهر مدن العراق — أوى فيها جماعـة الى منزل موصد الابواب ، فقعدوا في

حلقة سمر حول احد القصّاص يصغون الى صوته هامساً في آذانهم بهـذه الحكاية همس محترس كالذي يخشى ان تكون في الزوايا والجدران ، او على الكوى والمنافذ ، آذان تسمع وألسنة تنقل .

كان يقول :

وبعد ان علم معاوية بن ابي سفيان ، الداهية الخبيث ، ان علة فتاه المدلّل وولي عهده يزيد انما هي ارينب بنت اسحاق فهو يشتهيها لنفسه ، كلّف معاوية من يأتيه باخبارها ، فقيل له انها عند عبد الله بن سلام تزوجهـا منذ مدة . فكيف السبيل اذن وقد اصبحت ارينب في عصمة زوج ، وزوجهـا عبد الله من اصحاب الوجاهة في قريش ؟ أفسبيل الا ان يحمل عبد الله على طلاقهـا بحيلة من حيل الدهاء التي يتقنها ابن ابي سفيان ؟

وعلى هذا ، انفرد خليفة بني امية ببنته عاتكة يوماً يفاوضها في شأن خطير . وبنته عاتكة هي التي يقول فيهـا الشاعر متغزّلاً :

وهي زهراء مثل لؤلؤة —
الغواص ميزت من جوهر مكنون !
ثم خاصرتهـا الى القبة —
الخضراء تمشي في مرمر مسنون !

اما ذلك الشأن الخطير الذي فاوض فيه معاوية بنته فلا بد لنا من انتظاره كي نعرفه من مساق الاحداث .

كتب معاوية الى عبد الله بن سلاّم يولّيه ولاية العراق . وبعد اسابيع بعث يستقدمه الى دمشق . ويستقدم معه الشيخين ابا هريرة وابا الدرداء وهما من المقدّمين بين صحابة النبي .

حتى اذا حضروا جميعاً استقبلهم معاوية احسن استقبال ، وفاجأهم هذه المفاجأة العجيبة . قال :

ـ اني لم اولِّ هـذا الفتى القرشيّ عبد الله بن سلام ولاية العراق الا لاني سمعت من شرف اخلاقه وقوة ذكائه ما ارتاحت اليه نفسي . وعندي بنيّة بلغت مبلغ النساء وقد فكرت في زوج لها فلم اجد اصلح من عبد الله . وارجو ان يكون في عملي سنّة تواضع للخلفاء من بعدي . فكيف ترى يا ابا هريرة ويا ابا الدرداء وانتما صاحبا رسول الله ؟

فمكث ابو هريرة صامتاً . واجاب ابو الدرداء :

ـ نعم ما تفعل ، يا امير المؤمنين ، وانت تريد التواضع .

فالتفت معاوية الى عبد الله بن سلاّم وسأله :

ـ أراض انت ؟

فأجاب عبد الله : بل تمنيت ان يكون لي الف لسان فاشكر لامير المؤمنين هذا الفضل العظيم .

ـ اذن ، فلم يبق الا ان اسألكما ، ايها الشيخان الجليلان ، ان تدخلا على عاتكة بنتي فتأخذا رأيها وتقنعاها بالقبول . وعبد الله ليس بمجهول لديكما . فتحدثا اليها عن شيمه النبيلة . وانكما لموفّقان ان شاء الله .

ونهض معاوية فقاد الرجلين بنفسه الى عتبة المقصورة التي تقيم فيها بنته .

ولم تقل عاتكة بنت معاوية الا خيراً حين ذكر لها ابو هريرة وابو الدرداء ما جاءا من اجله . الا انها صرّحت بما طبعت عليه نفسها من الغيرة العنيفة ، فهي لا تطيق ان يكون لزوجها امرأة

سواها . فان كان عبد الله متزوجاً فليس الى الرضى به من سبيل .

فخرج الشيخان ومعاوية وعبد الله بانتظارهما في الديوان . فبادرهما الخليفة بقوله :

ـ ارى انكما لم تلبثا طويلاً .

فأجابه ابو الدرداء : لم نحتج الى طول اقامة . كانت بنت امير المؤمنين صريحة . فهي تقبل عبد الله زوجاً لها شرط أن لا تكون له امرأة سواها . ونحن نعلم ان عبد الله متزوج . فقد أقفل الباب اذن .

فرفع معاوية حاجبيه واتسعت عيناه الحادتان وقال مصطنعاً الدهشة :

ـ أمتزوج عبد الله ؟

قال ابو الدرداء : نعم ، وعنده امرأة من خير النساء فضلاً وعقلاً وجمالاً .

ـ وكيف العمل اذن ؟ احسب ان لا سبيل الى حل المشكلة .

وصمت معاوية وتلبد وجهه فعل ممثّل متقن .

وأطرق عبد الله بن سلام مفكراً . سيستاء معاوية فيعزله عن ولاية العراق بعد ايام . ثم كيف يحول شيء بينه وبين مصاهرة الخليفة ؟ صحيح انه يحب زوجه ارينب ، لكن أمِنَ الحكمة ان يضحي في سبيلها بكل هذا الجاه والسلطان ؟ وما يقول عنه الناس ؟ سيكبر بعضهم عمله اذا وفى لارينب . وهؤلاء هم رواة القصص العجيبة والشعراء . غير ان عامة الناس سيعتقدونه غبياً من الاغبياء .

وما هي إلا رفة جفن حتى حرك عبد الله بن سلام شفتيه

قائلاً :

ـ لا بأس ، اطلق زوجتي . وسيعوض الله ارينب من هو خير مني .

فبدت علائم الاضطراب على ابي الدرداء . وجمد وجه ابي هريرة . لكن لم يكن لهما ان يقولا شيئاً . اما معاوية فتظاهر باللامبالاة وقال لعبد الله :

ـ ذلك اليك . وأظن بنتي سيسرها ان تعلم انك طلقت زوجك في سبيلها .

وانفض المجلس .

وفيما كان عبد الله بن سلام يسعى في طريقه راجعاً الى العراق ، وهو يحلم احلام الجاه والسلطان ويصرف عن ضميره عبئاً ثقيلاً جثم عليه ، كان ابو هريرة وابو الدرداء في مكان ما من دمشق يتبادلان الحديث . قال ابو هريرة :

ـ اظن معاوية يبيت امراً ، يا ابا الدرداء ، وقد دفع بهذا الفتى المسكين الى طلاق زوجته .

ـ وإني لاظن ما تظن . غير أني لم استطع ان اهتدي الى قصد معاوية . هل قدّرت شيئاً ؟

ـ كلا ! فأنا في سرداب من الحيرة لا يلوح لي بصيص من ضوء . ومع ذلك فقلبي يحذرني . ولست اريد ان اشهد امراً قد تكون فيه ريبة فيقال اني شريك فيه . سأحيد بنفسي عن هذا الامر .

ـ لئن اخترت الحياد اليوم فقد اخترته من قبل . أفما كنت في وقعة صفين تحضر مجلس عليّ ثم تنتقل الى معاوية وقت الطعام ،

ثم تلجأ الى التل اذا دار القتال وانت تقول : عليّ اعلم ، وطعام معاوية ادسم ، والقعود فوق التل اسلم ؟ اما انا فسأبقى ، يا ابا هريرة .

ولا بد من ان ينجلي هذا القصد الذي يبيّته معاوية .

وعلى هذا افترق الشيخان .

ولبث معاوية في قصر الخضراء يبتسم في سرّه ابتسامة الظفر ، الا انها ممزوجة ببعض القلق . لكنه تلقى بعد ايام كتاباً من واليه على العراق ففضّه وقرأ ما فيه بلهفة . واذا بعبد الله ينبئه انه طلق زوجته فور وصوله واصبح على استعداد لعقد الزواج الجديد . هنا ابتسم معاوية ابتسامة الظفر المطمئنة التي لا يشوبها اثر من قلق .

وارسل يستدعي ابا هريرة وابا الدرداء الى حضرته . فأقبل ابو الدرداء وحده معتذراً عن ابي هريرة .

قال له معاوية :

— يا ابا الدرداء ، ان هذا الفتى عبد الله بن سلاّم قد طلّق زوجته وكتب الينا كتاباً بالخبر . فادخل على بنتي فبلّغها ان لم يبق مانع من قبولها اياه زوجاً .

فوقف ابو الدرداء واتجه الى مقصورة عاتكة بنت الخليفة وقص عليها النبأ . فما راعه الا ضحك اطلقته الفتاة ، احسّ في غوره الشماتة والسخرية . فرقصت على صدره لحيته البيضاء وقال لها :

— ارى بنت امير المؤمنين عظيمة السرور بهذا الفوز الذي احرزته اذ قدرت ان تنتزع لنفسها رجلاً من امرأة اخرى .

فتظاهرت بنت معاوية بالرزانة وقالت لابي الدرداء :

ـ عفوك، يا شيخي، لم تفهمني . أتظنني بهذا القدر من السذاجة ؟ كيف اطمئن الى رجل كعبد الله سريع الطلاق ؟ وكيف آمن ان يُشمت بي امرأة اخرى كما اشمتني اليوم بامرأته ؟ لا ، لا ارضى به زوجاً وانا اعلم موقع المرأة التي طلقها من قلبه ، واعلم انه لم يُردْني الا لحرصه على الولاية ومصاهرة الخلفاء .

فدار ابو الدرداء الى باب المقصورة وخرج مصعوقاً لا يدري هل يجوز له ان يلوم هذه الفتاة التي جابهته اصدق مجابهة ؟ واسرع الى حضرة الخليفة ، فأفضى اليه بما كان ، وعلائم الاضطراب بادية عليه .

قال معاوية :

ـ ان هذه البنيّة شديدة العناد . ولست اعرف لها طباً او علاجاً . واذا اسفت لعدم زواجها بعبدالله ، فلن اكرهها عليه اكراهاً . وعبد الله هو الذي اقترح طلاق زوجته فهو المسؤول عن عمله . لكني عظيم اعظم الحزن لما اصاب امرأته ، وقد سمعتك تذكر ان ارينب من خير النساء فضلاً وعقلاً وجمالاً ، وهذا ابني يزيد لا بد له من زوجة . فامض لساعتك فاخطبها له ، يا ابا الدرداء ، وابذل لها ما شئت من مهر . وسآمر فوراً بان تُعدّ لك عدة السفر الى العراق .

فهز ابو الدرداء رأسه موافقـــاً . وكان في قلبه يقول : يا للداهية الخبيث !

وصل الصحابيّ الزاهد الى العراق فسمع اول ما سمع ان الوالي عبد الله بن سلاّم طلق امرأته ارينب بنت اسحاق وهو موعود بزواج عاتكة بنت الخليفة ، الا انه تلقى كتاباً بالعزل !!

فما ملك ابو الدرداء ان تجتاحه موجة من غيظ . وما استطاع الا ان يحسّ ان معاوية انما اراد اصلاً ان يغصب ارينب لابنه يزيد . فعقد النية على ان لا يجتمع يزيد بأرينب ما دامت فيه حياة !

ولكن كيف يصنع ؟

وهنا خطر له ان يستعين بالحسين بن عليّ . والحسين معارض لمعاوية ، منافس لابنه يزيد .

واسرع الصحابيّ الى الحسين ، فاحتفل به السبط لما رآه ابهج احتفال . ثم تطرّق بهما الحديث الى مكر معاوية بعبد الله بن سلاّم ، والى ذكر خطبة ارينب ليزيد .

وحرص ابو الدرداء بما وصف من مكر معاوية وفضل ارينب وجمالها ان يستفز نخوة الحسين وغيرته . فقال له الحسين :

ــ اذكرني لها ايضاً وابذل لها من المهر مثل ما بذل ابن معاوية .

وعلى هذا انصرف ابو الدرداء فالتمس مكان ارينب ودخل عليها في منزلها . فما ابصرته حتى رأى الابتسامة تسرع الى شفتيها . لكنه رأى الدموع تترقرق في عينيها . فقال لها :

ــ حقك ، يا ابنتي ، ان تدمعي وان تبتسمي . فعبد الله بن سلام ممن يؤسف لفراقهم . لكن لك العزاء العظيم في خاطبين اوجه منه واكرم : الحسين بن علي ويزيد بن معاوية . فاختاري ايهما شئت .

اجابته ارينب بصوت ناحب :

ــ اي ، ابا الدرداء ، إنك صاحب رسول الله . فاختر لي بينهما ،

ولك عليّ عهد الله ان لا انزل إلا على رغبتك .

– يا ابنتي ! ما زلت كأنني الساعة ارى رسول الله يقبّل الحسين في ثغره وهو صغير . فضعي شفتيك حيث وضعهما رسول الله ، إلا اذا كنت تشتهين عرشاً ، فيزيد ابن خليفة وولي عهد خليفة .

– قاتل الله العرش ، يا ابا الدرداء . وهل سحق قلبي إلا العرش فباعد بيني وبين عبد الله !

– اذن فانت تختارين الحسين .

وعقد لها في اليوم نفسه على الحسين بن علي .

وطار الخبر الى دمشق . فثارت ثائرة معاوية . وتفجر غضبه على ابي الدرداء لعلمه انه هو الذي خذله . غير ان ابا الدرداء كان بعيداً . وكان معاوية ادهى من ان يعلن غضبه ويظهر الهزيمة على نفسه ، فقال : امرأة رُكبت ، فأردنا ان ندفع عنها النكبة ، فسبقنا الحسين الى هذه المكرمة ، عافاه الله .

أما يزيد فأدرك ان لا دواء لهذا الجرح الذي حل به إلا النسيان الذي تسوقه الايام في ركابها .

بقي عبدالله بن سلام . وكان جرحه عميقاً طرياً يقطر دماً ويمضّ نفسه مضاً شديد الوقع . جرح حب ، وجرح كرامة ، وجرح خيبة في ما حلم من احلام الجاه والسلطان .

راح يندّد بمعاوية . ولغطت بخبره جميع الاوساط . غير ان ذلك لم يُجدِه كثيراً او قليلاً ، وعلى الاخص بعد ان اصبحت امرأته في عصمة رجل آخر لا حق له عليه .

وشاءت المصادفة ان تأتي ساعة يتذكر فيها عبدالله ان له

قبل ارينب وديعة من نفائس الجوهر استودعها اياهـا ، ثم نسي ان يستردها منها يوم الطلاق . أفكانت تلك مصادفة في الحقيقة ام تدبيراً من غوامض الاسرار ؟

وانطلق عبد الله الى الحسين ينبئـــه بالامر ، وهو موقن ان ارينب ستتجاهل وديعته لما سلف من قبح معاملته لها . فأخذه الحسين وادخله عليها قائلا :

— تسلم منها وديعتك كما سلمتها اياها يداً بيد .

وانسحب الحسين . فدخل عبد الله خجلا مرتبك الخطى تدور به الارض . والقى السلام مطأطئاً برأسه ، غارساً عينيـه في موطئي قدميه . وذكر لها طلبته والكلمات تلتصق بحلقه .

فطغت على وجه ارينب سحابة من شحوب واختلجت شفتاها . لكنها لم تقل شيئـــاً ... نهضت تبحث له عن الوديعة . وكانت تعرف مكانها بالضبط وتحرص عليها اعظم حرص ، لانها ترى فيها الوسيلة الوحيدة التي يمكن ان تجمعها بعبد الله مرة اخرى .

شدّ ما كانت ارينب في سرهـا تتذكر هذه الوديعة وتسائل نفسها : هل يعود من اجلها ؟ وقلبها يقول لهـــا : سيعود ! لذلك شحب وجهها من عنف التأثر واختلجت شفتاهـا اول ما بصرت به يدخل عليها ويسلّم ويلتمس وديعته . ومع هذا فقد استطاعت ان تُمسك على نفسها الوقار وتمشي الى حيث حفظت الوديعة بقدم رزينة . ولا شك انها احست بعينيه ترتقبانها . فلما مدت يدها الى مخبأ الوديعة اجتهدت ان لا تظهر عليهـــا رعشة . وعادت تمشي نحوه ووجهها جامد كأنه مقدود من حجر . وناولته الصرة على شكل ما صرها يوم سلمها اياها قبل الطلاق .

ركع عبد الله ووضع الصرة ارضاً وفضّها بصابع مرتجفة . ثم حفن حفنة من الجواهر التي فيها ، يكاد لا يعي ما يفعل . وقال لارينب بصوت منسحق :

ـ خذي . خذي هذا جزاء ما سهرت عليها وحفظتها هذه المدة .

ورفع اليها نظره . وكانت ما تزال واقفة مقابله بوجهها الجامد . فتعلّقت عيناه بعينيها اللتين صلّبتهما جفوة وقسوة فلاحتا كأنهما من زجاج . قالت له بهدوء :

منذ متى عهدتنا ، يا ابن سلام ، نكترث للجواهر ؟

فأحس بكل لفظة من الفاظها خنجراً يغوص متمهلاً بين اضلاعه . واشتد اضطراب كفيه كالاوراق في العاصفة ، حتى تساقطت منهما الجواهر على الارض .

ثم ما لبث ان سمع صوتها نغماً هادئاً جارحاً مقبلاً من بعيد :

ـ ولو أننا رضينا ، يا ابن سلام ، لكان لنا ما شئنا من هذه الجواهر ، بل لكان لنا يوماً عرش منها فجلسنا عليه الى جانب ملك . لكننا لا نرمي بقلبنا وقلب من أحبنا على التراب لنطأهما بالقدم مشياً الى جاه او سلطان ذاتي .

ولم يكن عبدالله ليجهل ما تعني ارينب . كان يعلم انها رفضت يزيد وآثرت عليه الحسين . وكان اعرف الناس بانه قد طلقها طمعاً بالجاه والسلطان لنفسه اذا تزوج بنت معاوية ... وخشي ان تتابع ارينب كلامها فتزيده على جراحه جراحاً ، فقال لها بصوت ناحب :

ـ كفى ، كفى ، رحماك !

وعاد فأغرق في الصمت . وغشيَ عينيه غشاء من دموع . ومرت بخاطره اطياف سعادة لا يرجو ان تؤوب . إلا انه لم

يلبث ان رأى خلال دموعه عجباً ...

رأى عيني ارينب الزجاجيتين ترقصان هما ايضاً بالحنو والحنين ، وتنديان بالدموع ، ويرتسم فيهما ابتسام ذبيح . فلم يصدق . خال نفسه يحلم حلماً راغداً في يقظة تاعسة .

وهنا رجع فدخل عليهما الحسين كالمفاجيء ... ابصرهما على تلك الحال التي تفتّ الكبد . فرحمها وصاح :

ـ ربي اشهد انها طالق ثلاثاً . ربي اشهد اني جعلتها في عصمتي ولم امسسها .

ودارت الارض بارينب لتهوي بها على عبدالله . ووثب عبد الله ناهضاً من ركعته وخفض بصره الى الارض حيث كانت قدما امرأته تطآن جواهره المبعثرة ...

انتهى حديث القصّاص في تلك الليلة من ليالي الكوفة في تلك الحلقة السرّية من حلقات السمر ، وانقطع همسه المحترس . ولشد ما كان على حق في احتراسه ، فان شرطة الدولة لم يلبثوا طويلاً حتى تشمموا ريحه وكشفوا عنه الستر فأخذوه فدفعوا به الى السجن .

ومعاوية عهدئذ يدنو من خاتمة هذا المطاف الطويل الذي قطعه متقلباً في الولاية والملك ، متمرّساً بالسياسة وطرقها المستقيمة حيناً ، الملتوية احياناً .

فلما قرأ في ما رُفع اليه من حوادث العراق نبأ هذا القصّاص الذي يتلو حكاية الحسين وارينب وعبد الله ويزيد ، لم يملك في خلوة ديوانه ان يعود الى نفسه ، وان تمر بخاطره ذكريات وعبر وتأملات .

لقد عاشت في ذهنه حادثة ارينب وتوالت على ذاكرته

اجزاؤها وتفاصيلها فتمتم يقول :

ـ تلك امرأة اخرى علمتنا ان الحب اقوى ...

لكن ترى علامَ قال امرأة اخرى ؟ علامَ هذه « الاخرى » تبدر عفواً من شفتيه بوحي من دخيلته اللاواعية ؟

وتجلت لخاطره صورة كانت يد الايام والليالي قد نسجت عليها حجاباً كثيفاً من نسيان . تلك صورة سعاد ، صورة الفتاة الاعرابية التي كانت اول من علمه تفوّق قدرة الحب .

ورنّت في اذنيه اصداء من ذلك التوبيخ الصارم الذي تناول به يومئذ واليه على البادية ابن ام الحكم . ولم ينس انه حاول يومئذ ان يحاسب نفسه بما حاسب به ابن ام الحكم . فهل صدق حقاً في محاسبته نفسه ؟ وهل هو حفظ فاحسن حفظ الدرس الذي ألقته عليه سعاد الاعرابية ان الحب اقوى ؟ ان كان قد فعل مخلصاً ، فلمَ تورّط اذن في حادثة اريتب ؟ أفلم يحرّك عواطف دنيئة في عبد الله بن سلاّم ليجعل منه مطيّة طيّعة لتنفيذ مأربه ؟ فكيف ساغ له هذا الاستغلال لما رسب في بعض قرارات النفوس من خساسات ، وهو الساعي في تنظيم دولة جديدة ؟

« كلا ، كلا ! لقد اعوزك شيء على عظمتك ، يا ابن ابي سفيان »... قالها معاوية وهو ما برح ذاهباً مع التأملات ، مجتهداً في خلوة ديوانه ان يتعرّى سراً ذلك التعري المعنوي امام ذاته وحدها .

وأحس كأن سنّ قلم من فولاذ ، احمي بالنار ، راح يحفر في لوحة ذهنه سطراً على سطر من هذه الكلمات :

« انما اعوزك ، يا ابن ابي سفيان ، ان تدرك ان الحب اقوى ،

اقوى من الدهاء ، اقوى من استغلال الحساسات الراسبة في بعض قرارات النفوس . فأما حبك لفتاك يزيد ، فهل صح في يوم ان تسمى الانانية حباً ؟

« ولانك لم تدرك ان الحب اقوى — حتى هـذا الحب الصغير بين رجل وامرأة — فقد كنت اعجز من ان تدرك ذلك الحب الآخر الكبير : حب النـاس . أفما بعثت في يوم تقول لابن ابي طالب : « القاك بجموع لا يفرقون بين الناقة والجمل » . ولو انك احببتهم لما رضيت لهم هذه الغفلة ، ولما اعتززت بها صفةً فيهم ، ولما اعجبك ان يكونوا كالمادة الغبية تستعملها في البناء ، حتى بناء الجديد ، ان امكن ان يبنى جديد ثابت بمادة غبية . ثم ألم يسألك سائل يوماً عن احب الناس اليك ، فأجبت : هو من يحببني اشد تحبيب الى الناس ، وكان ينبغي لك ان تقول : هو من يعلمـني حب النـاس على اصح الوجوه .

« فبحب الناس يتم معنى هذا العقل والحلم الذي تحليت به وقلت انه افضل ما اعطي المرء . وبحب الناس يعظم ما قلته : « إن ألذ الاشياء عندي غيظ أتجرعه » ، وإلا فانك منافق حـين تتجرع الغيظ وتحلمُ وتعقل لا لحب بل لانتهاز الفرصة الاوفق .

« العقل سما بك الى فهم الضرورة التاريخية ، فخدمتها . وبذلك خدمت الناس ، لكن الى الامد الوجـيز . فانك حـين عجزت ان تحب حقاً لم يكن امامك مفرّ من ان تنتهي الى هذه المأساة الشعورية ، بل الآفة : آفة الملل التي لا يزكو معها عمل ، ولا تمتد منـه في ثرايين المستقبل تلك الروح المحمسة الملهبـة التي تكفل استمرار العمل وصيرورته الدائبة من عظيم الى اعظم .

« الملل ! [١] يا هذا السوس الناخر الذي يقوّض الدعائم .
« ولكن كان الحب اقوى، يا معاوية ، لو اخذت به ! »

١ خطب معاوية قبل مرضه الاخير فقال : « قد طالت امرتي عليكم حتى مللتكم مللتموني ، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقي . »

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع نصار
في اليوم الثامن من كانون الثاني
سنة الف وتسعمائة وخمسين .